طه حسين

الأيــام

٣

دار المعارف

obeikandl.com

الناشر: دار المعارف . ١١١٩ كورنيش النيل . القاهرة ج. م. ع.

الفصل الأول

على باب الأزهر

كان صاحبنا الفتى قد أنفق أربعة أعوام فى الأزهر، وكان يعدها أربعين عاما، لأنها قد طالت عليه من جميع أقطاره، كأنها الليل المظلم، قد تراكمت فيه السحب القاتمة الثقال، فلم تدع للنور إليه منفذا. ولم يكن الفتى يضيق بالفقر، ولا بقصر يده عما كان يريد، فقد كان ذلك شيئا مألوفا بالقياس إلى طلاب العلم فى الأزهر الشريف.

وكان الفتى يرى من حوله عشرات ومئات يشقون كما يشقى. ويلقون مثل ما يلقى، وتقصر أيديهم عن أقصر ما كانوا يحبون. قد اطمأنوا إلى ذلك، وألفته نفوسهم، واستيقنوا أن الثراء والسعة وخفض العيش أشياء تعوق عن طلب العلم. وأن الفقر شرط للجد والكد والاجتهاد والتحصيل، وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خير وأجدى من امتلاء الجيوب والأيدى بالمال.

وإنما كان يضيق أشد الضيق بهذا السأم الذى ملأ عليه حياته كلها، وأخذ عليه نفسه من جميع جوانبها.

حياة مطردة متشابهة لا يجد فيها جديد منذ يبدأ العام الدراسى إلى أن ينقضى:

درس التوحيد بعد تُصَلَّى الفجر، ودرس الفقه بعد أن تشرق الشمس، ودرس فى النحو بعد أن يرتفع الضحى، وبعد أن يصيب الفتى شيئا من طعام غليظ، ودرس فى النحو أيضا بعد أن تصلى الظهر، ثم فراغ فارغ كثيف بعد ذلك يصيب فيه الفتى شيئا من طعام غليظ مرة أخرى، حتى إذا صُليت المغرب راح إلى درس المنطق يسمعه من هذا الشيخ أو ذاك. وهو فى كل هذه الدروس يسمع كلاما معادا وأحاديث لا تمس قلبه ولا ذوقه، ولا تغذو عقله. ولا تضيف إلى علمه علما جديدا. فقد ترتب فى نفسه تلك الملكة كما كان الأزهريون يقولون، وأصبح قادرا على أن يفهم ما يكرره الشيوخ من غير طائل.

وكان الفتى يفكر فى أن أمامه ثمانية أعوام أخرى، سيعدها ثمانين عاما، كما عد الأعوام الأربعة التى سبقتها، وفى أن عليه أن يختلف إلى هذه الدروس كما تعود أن يفعل، وأن يعيد ويبدئ فى الكلام، الذى لا يسيغه ولا يجد فيه غناء.

وفى أثناء هذا كله ذكر اسم الجامعة، فوقع من نفسه أول الأمر موقع الغرابة الغريبة، لأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل، ولم يعرف إلا الجامع الذى كان ينفق فيه بياض النهار وشطرا من سواد الليل. فما عسى أن تكون الجامعة، وما عسى أن يكون الفرق بينا وبين جامعه ذاك أو

openkandil.com

جوامعه تلك الكثيرة التى كان يختلف فيها إلى شيوخه. فما أكثر ما كان بعض الشيوخ ينأون بدروسهم وطلابهم عن الأزهر، ويؤثرون أنفسهم بمسجد من هذه المساجد الكثيرة فى الحي! وكان تنقل الفتى بين هذه المساجد يرفه عنه بعض الترفيه.

على أنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة هذه فهما مقاربا، وعرف أنها مدرسة لا كالمدارس، وأحس أن مزيتها الكبرى عنده أن الدروس التى ستلقى فيها لن تشبه دروس الأزهر من قريب أو بعيد، وأن الطلاب الذين سيختلفون إليها لن يكونوا من المعممين وحدهم، بل سيكون فيهم المطربشون، وعسى أن يكونوا أكثر عددا من أصحاب العمائم، لأن هؤلاء لن يعدلوا بعلمهم الأزهرى علما آخر، ولن يشغلوا أنفسهم بهذه القشور التى يضيع فيها أبناء المدارس . كما كانوا يسمونهم فى تلك الأيام . أوقاتهم.

وكان نبأ الجامعة هذا إيذانا للفتى بأن غمته تلك توشك أن تكشف، وبأن غمرته تلك توشك أن تنجلى. فقد يتاح له أن يسمع غير ما تود أن يبدئ فيه ويعيد من علمه ذاك الممل. وقد أقام الفتى مع ذلك على شك ممض يؤذى النفس أشد الإيذاء، ولا يستطيع أن يصرح به لأحد من أصدقائه أو ذوى خاصته.

أتقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها أم ترده إلى الأزهر ردا غير جميل لأنه مكفوف، وليس غير الأزهر سبيلا إلا العلم للمكفوفين؟ كان هذا الشك المؤلم يؤرق ليله ويقض مضجعه، ولم يكن يناجى به إلا نفسه. كان يستحى أن يتحدث عن آفاته تلك إلى الناس، وكان يؤذيه أشد الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه، وما أكثر ما كانوا يفعلون!

عاش إذن بين خوف ملح ورجاء ضئيل يعتاده بين حين وحين، فيتيح لنفسه شيئا من راحة وروح. حتى إذا أنشئت الجامعة وعلم الفتى علمها ذهب عنه الخوف، وملأ الأمل نفسه رضا وبهجة وسرورا. واختلف إلى دروسه فى الأزهر ذات يوم فلم يسمع من شيوخه شيئا، ولم يفهم عنهم شيئا. كان فى شغل عنهم وعن دروسهم بما سيكون حين يقبل المساء. ولأول مرة سمع درس الأدب فى الضحى فكان حاضرا كالغائب، ويقظا كالنائم، ولم ينتظر أن تُصلى العصر، وإنما سعى إلى الجامعة فى أعقاب درس البلاغة مع زميليه، فأدى كل منهم ذلك الجنيه الذى لم يكن بد من أدائه ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس. وكان غريبا عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلا. فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه، وإنما تعودوا أن يرزقوا أرغفة فى كل يوم ليطلبوا العلم فى الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يقيم الأود. وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيرا، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العسر فى أداء ثمنها.

واستمع الفتى لأول مرة درس من دروس الجامعة فى الحضارة الإسلامية. فراعه أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهد فى الأزهر؛ فهذا أحمد زكى بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التى لم يسمعها الفتى من قبل: "أيها السادة: أحييكم بتحية الإسلام، فأقول السلام عليكم ورحمة الله".

وإنما كان الفتى يسمع فى الأزهر كلام آخر لا يتجه به الشيوخ إلى الطلاب، وإنما يتجهون به إلى الله عز وجل فيحمدونه ويثنون عليه، ولا يحيى فيه الشيوخ طلابهم، وإنما يصلون فيه على النبى وعلى آله وأصحابه أجمعين!

ثم راع الفتى بعد ذلك أن الأستاذ لم يقل فى أول درسه: "قال المؤلف رحمه الله" وإنما استأنف الدرس يتكلم من عند نفسه ولا يقرأ فى كتاب... وكان كلامه واضحا لا يحتاج إلى تفسير، وكان سويا مستقيما لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليه. وكان غريبا كل الغرابة، جديدا كل الجدة، ملك على الفتى عقله كله وقلبه كله، فشغل عن صاحبيه، وشغل عمن كان حوله من الطلاب، وما كان أكثرهم١ حتى إذا أوشك الدرس أن ينقضي، أعلن الأستاذ أنه سيعيد هذا الدرس بعد دقائق ليتاح للطلاب الكثيرين الذين لم يتح لهم دخول الغرفة أن يسمعوه. وانصرف الفوج الأول من الطلاب، ولكن صاحبنا لم يَرِمْ، وإنما أقام فى مكانه حتى سمع الدرس مرة أخرى.

لم ينم الفتى من ليلته تلك، وسمع المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه، وإنما تثاقل وتثاقل، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى. ولولا درس الأدب فى الرواق العباسى لظل فى غرفته حتى يقبل المساء.

وقد سمع الفتى درس الأدب غير حفى به أول الأمر، ولكن الشيخ سأله عن شيء فلجلج الفتى وسخر منه الشيخ، وسأله عن هذين المقطفين اللذين ركبا فى رأسه ماذا يصنع بهما، يريد بالمقطفين أذنيه، ومنذ ذلك الوقت أقبل الفتى على درس الأدب هذا كما كان يقبل عليه من قبل، فلم يضيع مما قال الشيخ حرفا. وسمع بعد ذلك درس النحو فلم يمنح الأستاذ إلا أحد مقطفيه هذين، ولعله لم يمنحه مقطفه كله.. إنما كان يعيش لساعة المساء، ويتعجل ذلك الدرس الذى سيسمعه من أحمد زكى بك عن الحضارة المصرية القديمة، وقد سمعه فلم تسعه الأرض على رحبها؛ سمع أشياء لم تكن تخطر له على بال، ولم يكن يتصور أنها قد كانت، أو أن الناس يمكن أن يتحدثوا بمثلها.

وكان تحرقه إلى درس اليوم الثالث أشد وأقوى من تحرقه إلى الدرسين اللذين سبقاه، فسيكون الأستاذ إيطاليا، وسيتحدث باللغة العربية. إيطالى يتحدث إلى المصريين فى العلم بلغتهم العربية، وفى شيء لم يسمع الفتى وأترابه الأزهريون به قبل يومهم ذاك، ولم يفهمه الفتى وأترابه

حين سمعوه، أنكرته آذانهم، وأنكرتهم نفوسهم وأذواقهم أيضا. وكان اسم هذا الشيء الغريب: "أدبيات الجغرافيا والتاريخ".

ما كلمة الأدبيات هذه؟ وكيف تكون فى الجغرافيا والتاريخ؟ وقد أقبل الفتية على الدرس فلم يفهموا شيئا، لأنهم لم يسمعوا شيئًا.

كان الأستاذ أغنالسيو جويدى شيخًا كبيرًا نحيف الصوت ضئيله جدًا لا يبلغ عنه أقرب الطلاب إليه مجلسا، وكان الطلاب كثيرين، وكانت ضآلة الصوت تغريهم بالضجيج، فضاع الدرس الأول فى غير طائل بعد أن تعب الأستاذ فى إلقائه، وتعب الطلاب فى محاولة الاستماع له. واضطرت الجامعة إلى أن تختار من الطلاب أرفعهم صوتا وأفصحهم نطقا ليبلغ عن الأستاذ كما يبلغ أحد المصلين عن الإمام حين تقام الصلاة.

ولم ينفق الفتى ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيرا فجائيا كاملا.

ohbeikandl.com

الفصل الثانى

كيف سقطت فى امتحان العالمية!

لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثّت الأسباب بينه وبين الأزهر، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره، ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره. ولم تكن الجامعة وحدها هى التى صرفته عن الأزهر، وإنما صرفه عنه قبل ذلك زهده فيه، وضيقه به، وملله من أحاديثه المعادة. وقد انصرف صاحباه عن الأزهر أيضا: ذهب أحدهما إلى كلية الفرير يعلم فيها اللغة العربية، وذهب الآخر إلى المطبعة الأميرية يصحح فيها ما كانت تطبع من الكتب، فلم يبق لصاحبنا فى الأزهر أرب، وقد ضاق حتى بأحب ما كان فى الأزهر إلى نفسه، وهو المدرس الشيخ سيد المرصفي، فأعرض عنه كل الإعراض، لا زهدا فيه، ولا نفورا منه، ولكن سخطا على الشيخ رحمه الله، لأنه أذعن لشيخ الأزهر وأسرف فى الإذعان، وأعرض عن معابثة تلاميذه، وتوهم أن الجواسيس قد أرصدت له، وبثت عليه، فتحفظ فى كل ما كان يقول، وكره أن يسمع من تلاميذه بعض ما كانوا يأخذون فيه إذا جلسوا إليه من عبث الشيوخ وخوض فى حديثهم!! وقال للفتى ذات يوم حين أخذ فى بعض ذلك: "لا، لا، لا. دعنا نأكل عيش..!"، فتركه الفتى يأكل العيش... وأصبح لا يلقاه إلا يوم الجمعة يسعى إليه فى بيته، فينفق معه الساعات حلوة حرة، يقول فيها ما يشاء، ويسمع ما يشاء الشيخ أن يقول، وما أكثر ما كان الشيخ يقول!

ومنذ ذلك الوقت أيضا سلك الفتى فى حياته طريقا لم يكن يقدر أن سيتاح له سلوكها، فاتصل بالجريدة ومديرها الأستاذ لطفى السيد، وقويت الصلة بينهما حتى كان يلقها مرات فى كل أسبوع، وكان يلقى عنده من شيوخ المطربشين وشبابهم قوما كثيرين، وكانت أحاديث الأستاذ وزائريه تفتح للفتى أبوابا من العلم والمعرفة لم تكن تخطر له ببال من قبل، ولم يكن يقدر وجودها فضلا عن اتصاله بها من قريب أو بعيد.

واتصل الفتى كذلك بالشيخ عبد العزيز جاويش . رحمه الله . فأكثر الاختلاف إليه والاستماع له. وما هى إلا أن أخذ يجرب نفسه فى الكتابة، كما جرب نفسه فى الشعر بين يدى أستاذه المرصفى. ولم يكد الفتى يأخذ فى الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد، قلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام. ولكنه كان نقدا محافظا غاليا فى المحافظة، إلا أن يعرض لشئون الأزهر، فهنالك كان يخرج حتى عن طور الاعتدال، ويغلو فى العبث بالشيوخ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبد العزيز جاويش، وربما وجد منه إغراء بذلك وحثا عليه. وكان صاحبنا موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت.

opeikandi.com

أحدهما مذهب الاعتدال والقصد، ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزينه فى قلبه. والآخر مذهب الغلو والإسراف، ذلك الذى كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه تحريضا. وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعا. فإذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة، وإذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى.

ولم ينس الفتى قط كلمة كتبها فأورثته ألما لاذعا وحزنا ممضا، واضطرته إلى أن يسعى معتذرا متوصلا بالصديق إلى من كتبت فيه هذه الكلمة. كان ذلك حين اختصم الناس حول سؤال من أسئلة الامتحان فى الشهادة الثانوية فى الأدب. فكان ممن شارك فى هذه الخصومة زميل أزهرى من زملائه كان يعلم فى كلية الفرير وكان هذا الزميل ينتمى إلى أسرة كبيرة ويعد انتماءه إليها من مفاخره، ولكنه لم يكن من هذه الأسرة إلا لأن أباه كان من عتقائها. فلم رد صاحبنا عليه نسبه إلى الأسرة وبين طبيعة انتسابه إليها لم يرد إيذاء زميله، وإنما أعجبه هذا التعريض فاستجاب له، ولم يراجع نفسه فيه إلا حين قرأه مطبوعا فى الصحيفة. ولامه فيه صاحباه. هنالك أسقط فى يدله ولم يرض زميله إلا بعد جهد وعناء، وقد رضى الزميل وصفح، ولكن الفتى لم ينس هذا الإثم قط، وما أكثر ما ازدرى نفسه، وحاول أن يأخذها بألا تضع كلمة فى مقال حتى تفكر وتقدر وتتجنب الإيذاء ما وجدت إلى ذلك سبيلا!

ولم يكن هذا الندم كل ما جر عليه طول اللسان من ألم، فما أكثر ما كان يَكْلَف بالنقد فيمضى فيه مؤمنا به حريصا عليه لا يحسب لعواقبه حسابا.

ثم تمضى الأيام فى إثر الأيام، وإذا هو قد نسى ما كتب، وشغل عنه بأشياء أخرى، ولكن الناس لم ينسوه وإنما حفظوه له، وقيدوه عليه، وأخذوه بن حين سنحت الفرصة. وطول اللسان هو الذى قطع الصلة قطعا حاسما بين صاحبنا وبين الأزهر، ودفعه دفعا إلى حياته التى أتيحت له، وعرضه لسخط أى سخط، وحزن أى حزن، وعناء أى عناء، والغريب أنه قد تلقى السخط والحزن والعناء باسما موفور الرضا، طيب النفس، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهر، ولا بإلقاء الدرس فى حلقة من حلقاته.

لم يأس إذن على انقطاع الصلة بينه وبين الأزهر، وإنما ملأ قلبه الحزن والأسى حين عرف سخط أبيه الشيخ، وحزن أمه التى كان يختصها بالحب والبر والحنان.

كان ذلك حين أنشأ الشيخ رشيد رضا . رحمه الله . شيئا سماه مدرسة الدعوة والإرشاد، وأعلن أن هذه المدرسة لتعد طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ولإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون وأباطيلها. وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق، وسخطوا عليها أعظم السخط. رأوا فيما أحاط بإنشائها

من الظروف انحرافا عن الوفاء للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من رجل كان يرى نفسه أقرب تلاميذ الشيخ إليه، وأخصهم به وأوفاهم له. فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الأزهر بتأييدها. ورأى تلاميذ الأستاذ الإمام أن فى عطف الخديو على هذه المدرسة وإعانته لها ما أثار فى نفوسهم الريب فنفروا الناس منها، وأطلقوا ألسنتهم فيها، وعابوا على الشيخ رشيد أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ من الإمام من الأزهر وعرضه لكثير من الشر والأذى وأغرى به الشيوخ، حتى أذاعوا عن الشيخ ما أذاعوا من السوء، ونالوه بما نالوه من المكروه.

وفى ذات يوم أقام الشيخ رشيد وأصحابه حفلا بهذه المدرسة، واجتمعوا حول مائدة العشاء فى فندق من فنادق القاهرة يقال له "سافوي". ونشرت بعض الصحف أنباء وزعمت فيها أن أكواب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة. وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء، ورأوا ما أدير فيها من الأكواب فلم ينكروا بالعمل ولا بالقول.

هنالك ثارت ثائرة المخلصين للأزهر، فلهجوا بالشيوخ وقالوا فيهم فأكثروا القول. ودافع المدافعون عن الشيوخ بأن زجاجات فتحت فى ذلك العشاء وكان لفتحها فرقعة، ولكنها لم تكن زجاجات الشمانبيا، وإنما كانت زجاجات الكازوزة! ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقبلوا هذا الدفاع، ولم يصدقوه، وإنما مضوا يلهجون ويقولون فى الشيوخ فيكثرون القول، وكان صاحبنا الفتى أطولهم لسانا، وأجرأهم قلما، وأجرحهم لفظا. عاب الشيوخ شعرا ونثرا، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك فى صحيفة "العلم" فرضى المجددون وأغرقوا فى الرضا، وسخط المحافظون وأسرفوا فى السخط، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة من شعر الفتى الذى لم ينسبه إلى نفسه وإنما زعم أنه تلقاه فى البريد.

رعى الله المشايخ إذ توافوا ... إلى سافوى فى يوم الخميس

وإذ شهدوا كئوس الخمر صرفا ... تدور بها السقاة على الجلوس

رئيس المسلمين عداك ذم ... ألا لله درك من رئيس

ثم مضت الأيام وتتابعت فيها الأحداث، حتى إذا دار العام رأى الفتى نفسه يتهيأ للامتحان فى الأزهر لينال درجة العالمية. وقد تلقى الفتى ما كان يسمى حينئذ بالتعيين، وهو الدروس التى يجب أن يعدها ليلقيها أمام لجنة الامتحان، ويثبت لمناقشة الممتحنين فيها.

فاستعد الفتى وأحسن الاستعداد، وحفظ فأحسن الحفظ، حتى إذا لم يبق بينه وبين شهود الامتحان إلا سواد الليل، أقبل عليه شيخه المرصفى . رحمه الله . فأنبأه هذا النبأ العجيب الذى لم يحمله إليه فى ضوء النهار، وإنما حمله إليه فى ظلمة الليل، بعد أن صُلِّيت العشاء.

obeikandl.com

قال الشيخ: إذا أصبحت يا بنى فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا، فإن القوم يأتمون بك ليسقِّطوك.

قال الفتى: وما ذاك؟!

قال الشيخ: تعلم أنى عضو فى لجنة الامتحان التى ستحضر أمامها غدا، والتى يرأسها الشيخ دسوقى العربى، فقد دُعى رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأمر بإسقاطك مهما تكن الظروف.

قال الفتى: ولكنى سأحضر أمام لجنة أخرى يرأسها الشيخ عبد الحكيم عطا.

قال الشيخ: فإن هذه اللجنة لن تجتمع لأن رئيسها أبى أن يسمع للشيخ الأكبر حين أمره بإسقاطك. فلما ألح الشيخ الأكبر عليه أحل هو فى الإباء، فلما خيره الشيخ الأكبر بين إسقاطك وبين ألا تجتمع لجنته آثر ألا تجتمع اللجنة، وقال إنما هو غداء وثلاثون قرشا..

وأبى الفتى أن يستقيل على رغم إلحاح الشيخ المرصفى عليه فى ذلك، ونام ليلة هادئا موفورا، واستقبل صباحه راضيا مسرورا، وغدا على لجنة الامتحان، وكانت مجتمعة فى مكان فى الدراسة لا يعرف الفتى أقائم هو أم درس فيما درس من المنازل والدور.

غدا على لجنة الامتحان فألقى التحية، وجلس، وكان أعضاء اللجنة يشربون الشاى.

قال الرئيس للفتى: هل أفطرت؟

قال الفتى: نعم.

قال الرئيس: فأتمم هذا الكوب الذى شربت نصفه لتحصل لك البركة.

وأخذ الفتى من الشيخ كوبه مبتسما، وشرب ما فيه متكرّها. ثم أخذ فى الدرس الأول فأنفق فيه ساعتين ونصف ساعة،ولقى فيه من المناقشة أشدها، ومن الجدال أعنفه. وفى أثناء ذلك دخل الشيخ الأكبر، فلم يسلم، وإنما قال: حرام عليك يا شيخ دسوقي، حرام عليك، ارفق به! ارفق به! ثم انصرف..

ولم يرفق الشيخ دسوقى بالفتى، وإنما أضاف شدة إلى شدة. وعنفا إلى عنف. وانقضى الدرس الأول. وقيل للفتى اذهب فاسترح.

وخرج الفتى فإذا كرسى قد وضع إلى جانب الباب. وجلس عليه الشيخ الأكبر كأنه ينتظر شيئا.

ولم يكد يرى الفتى حتى دعا شيخا من الشيوخ كان هناك وقال له: خذه يا شيخ إبراهيم فاسقه فنجانا من القهوة!

وفى انتظار هذا الفنجان أقبل من حمل المحفظة إلى الفتى إيذانا بأنه قد سقط، وبأن اللجنة لا تريد أن يتم ما بقى له من الدروس.

obeikandl.com

الفصل الثالث

أثر اختفاء المرأة

وعاش الفتى وصاحباه أعواما غرباء عن الأزهر قريبين منه، يلمون به بين حين وحين، إن أتيح لهم ذلك. فيجلسون فى مجلسهم ذاك بين الإرادة والرواق العباسى، ويتندرون كما أحبوا أن يفعلوا دائما بالمقبلين على الأزهر والخارجين منه، وبالشيوخ والطلاب. وربما قرأ عليهم أحدهم الزيات فى هذا الكتاب أو ذاك من كتب الأدب القديمة أو الجديدة. وربما قرأ عليهم هذه الصحيفة أو تلك من صحف المساء، فأخذوا فى حديث السياسة وخطوبها، أو فى ذكر كتاب تلك الأيام وشعرائها، يلمون بهذا كله ولا يمنعون فيه. فقد كانوا فى تلك الساعات لا يكرهون شيئا كما كانوا يكرهون أخذ الأمور مأخذ الجد.

كانوا يقصدون إلى الأزهر ليلهوا ويلعبوا، لا يعلموا ويجدوا، فقد استقر فى نفوسهم أن للمجد مكانا غير الأزهر، هو الجامعة إذا كان المساء، وهو دار الكتب أثناء النهار. وربما شاقهم طعام الأزهر، فذهب ثالثهم الزناتى فاشترى لهم من هذا الطعام، وأقبلوا عليه كلفين به ساخرين منه، ومن الذين يعيشون عليه، ومن أنفسهم حين كانوا يعيشون عليه. فقد تغيرت أحوالهم شيئا؛ عمل أحدهم مدرسا فى كلية الفرير، وعمل الآخر مصححا فى المطبعة الأميرية، وأصبح لكل منهما مرتب فى آخر الشهر يتيح له شيئا من سعة، وينأى به عن حياة الأزهر تلك القاسية الجافية، وعن طعام الأزهر ذلك الخشن الغليظ. ولم يكن صاحبنا الفتى معلما ولا مصححا، ولم يكن له مرتب فى آخر الشهر أو أوله. ولكن حياته مع ذلك لانت بعض اللين. فقد ظل الشيخ يرسل إليه وإلى أخيه وابن خالته ما تعود أن يرسل من الزاد والنفقة على اتساع فيهما قليل. وأضيف إلى ذلك ما كان أخو الفتى يأخذه من مدرسة القضاء فى كل شهر، وما كان ابن خالته يأخذه من دار العلوم فى كل شهر أيضا. وكان كلاهما يصيب غداءه فى المدرسة التى يختلف إليها، وكان صاحبنا قد خلى بينه وبين ما يتاح له من طعام أثناء النهار، ليس لينا ولا رفيقا، ولكنه خير من طعام الأزهر على كل حال. وأتيح للفتى أن يصيب من الطعام المطبوخ مرتين فى الأسبوع، فكان طعام الأزهر بالقياس إليه خشنا غليظا، وكان ربما استطرفه بين حين وحين.

وقد جعل هؤلاء الفتية الثلاثة يحيون حياة الأدباء فى تلك الأيام، وكانت حياة الأدباء فى تلك الأيام مزاجا غريبا من متعة تختلس بين حين وحين، ومن بؤس نفسى يفرضونه على أنفسهم، وإن لم تفرضه عليهم الحياة، فالأديب عندهم وعند غيرهم فى تلك الأيام بائس بطبعه، طامح بطبعه إلى النعيم، يتخذ البؤس لنفسه عشيرا، ويجعل النعيم لنفسه حلما، ويختلس المتعة

openkandil.com

القصيرة بين حين وحين إن أتيح أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة فى الضواحى، أو تنزه فى الحدائق، أو جلسة فى قهوة من القهوات.

وكانت حياة الأديب فيما وراء ذلك ألوانا من الرضا والسخط تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة، قوامها أن يفكر كما كان يفكر القدماء الذين يقرأ آثارهم ويشعر كما يشعرون، ويسير فى الناس كما كانوا يسيرون. وقد ألح أولئك الفتية فى قراءة الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى وحفظه، كما ألحوا فى قراءة أخبار الشعراء والكتاب وعلماء اللغة. فعاشوا عيشة أولئك الناس فى دخائل نفوسهم، وإن لم يستطيعوا أن يعيشوها فى حياتهم الواقعة، لأن الظروف كانت تحول بينهم وبين ما كانوا يزيدون من ذلك. وهم قرءوا شعر أبى نواس وأصحابه، وقرءوا شعر الغزلين العذريين، فاستحبوا من الغزل ما استحب أولئك الشعراء، وذهبوا فيه مذاهبهم فيه مذاهبهم المختلفة. حافظ منهم من حافظ فآثر شعر العذريين وغزلهم، وجدد منهم من جدد فآثر شعر العباسيين وغزلهم، وخلقوا لأنفسهم مثلا للجمال يتغزلون فيها ويشيبون بها، ولم يكن للمحافظين منهم بد من أن يخترعوا مثلهم العليا اختراعا. فقد كانت الحياة تحول بينهم وبين لقاء الغوانى. ولكن المجددين كانوا خيرا منهم حظا. فلم يكن من الممتنع أن يقلوا فى الأزهر أو خارج الأزهر بعض الوجوه الصباح، وأن يتخذوا لغزلهم موضوعات لا يخترعها لهم الخيال، وإنما تعرضها عليهم الحياة.

وكذلك وجد بين هؤلاء الفتية من كان يذهب مذهب جميل وكثير، وكان الحرمان المطلق محتوما عليه؛ كما كان منهم من يذهب مذهب أبى نواس وأصحابه. وكان حظه من الحرمان أقل، ونصيبه من النعيم أكثر. فهو كان يستطيع أن يلقى أصحاب الوجوه الصباح، وأن يقول لهم ويسمع منهم، ويهيم بهم، ويقول فيهم الشعر، ويذهب فى هذا الشعر المذاهب، وربما ورطه هيامه وشعره وورط معه صاحبيه فى الشر القليل أو الكثير.

وكان ثالث هؤلاء الفتية نواسى الشعر ونواسى الهوى، وما أسرع ما ألف أفرادا من ذوى الوجوه الحسان، واطمأن إليهم وأكثر من لقائهم، يسعى إليهم وحده فى مجالسهم، وربما دعا أحدهم إلى مجلسه مع صاحبيه. وصاحباه يضحكان منه ويعبثان به أول الأمر، ثم يرثيان له ويلحان عليه بالنصح بعد ذلك، يؤدون إليه ما يحبون من العبث به والنصح له، بالحديث مرة وبالشعر مرة أخرى. ولكنه لا يحفل بعبثهما ولا بنصحهما، وإنما يمضى مع هواه لا يلوى على شيء، حتى أصبح حديث أترابه، وحتى أقبل الفتية ذات يوم إلى مجلسهم ذاك من الرواق العباسى فوجدوا بعض الزارين على عبثهم قد كتب لهم على الجدار الذى كانوا يستندون إليه هذين البيتين اللذين كتبهما شاعر قديم لأبى عبيدة معمر بن المثنى:

صلى الإله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله آمينا

فأنت عندى بلا شك بقيتهم ....

ولم يكد صاحبا الفتى يريان هذا الشعر حتى أخذهما ما يشبه الصاعقة. وضحك صاحبنا، وأغرق فى الضحك، وثاب صاحباه إلى مثل ما كان فيه. فضحكا معه وأغرقا فى الضحك أيضا، ولكن بغضهم لزملائهم من طلاب الأزهر زاد أضعافا مضاعفة، وجعل الفتى النواسى يبحث عن كاتب هذين البيتين بدون أن يصل من بحثه إلى شيء. ولكنه رجح لغير سبب أن خصمه إنما هو ذلك الطالب الأسود الذى كان ينافسه فى دروس النحو، والذى كان يبغضه أشد البغض، فاتخذه لنفسه عدوا، وجعل يتعمد إيذاءه كلما وجد إلى إيذاءه سبيلا. فكان لا يراه . وما أكثر ما كان يراه! . إلا رفع صوته بهذين البيتين اللذين حفظهما فيما زعم عن أبيه:

فى الهند طير ناطق سبحان من قد ألهمه

يقول فى تسبيحه ابن الأمة ما الأمة

ومنذ ذلك الوقت أسرف ذلك الفتى النواسى على نفسه وعلى صاحبيه وعلى زملائه من الطلاب. فكان يتتبع سيئاتهم وأغلاطهم، ويزيد فيها ويضيف إليها، ويقول فى ذلك الشعر، حتى أصبح هجاء، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه، وإنما يجهر به كلما وجد إلى الجهر به سبيلا. وربما احتال حتى ينشد شعره ذاك بأرفع صوته ليسمعه من قيل فيهم من الطلاب. ثم عظم فى نفسه الوهم واستأثر بها حب الشر، فكان كلما رأى أحدا ينظر إليه فيطيل النظر، أو ينظر إلى بعض أصحابه أولئك الحسان اتخذه لنفسه عدوا وهجاه. ثم بدا له أن الهجاء وحده لا يغنى عنه شيئا، فعمد إلى الشر منه، وجعل يكتب إلى إدارة الأزهر وإلى الشيخ الأكبر خاصة، الرسائل فى كل يوم، يسعى بها عنده فى هؤلاء الطلاب الذين اتخذهم لنفسه عدوا.

وضاق الشيخ الأكبر بهذه الرسائل التى جعلت تُصَبُّ عليه فى كل يوم كما ينصب المطر من السماء، وإذا الإدارة تعلق ذات يوم فى لوحة الإعلانات تنبيها تدعو فيه الطلاب إلى أن يكفوا عن هذه الخطة التى ينكرها الخلق ويحرمها الدين، وهو السعى بالسوء فى الشيوخ والطلاب عند المشيخة. وقد قرأ الفتى النواسى هذا التنبيه ذات يوم بين هذه الإعلانات الكثيرة التى كان الطلاب يعلقونها يعلنون فيها أن نعالهم قد ضاعت منهم، وأن من وجدها فليردها إلى صاحبها، وأن من سرقها فهو جدير بأن يغضب الله عليه ويقطعه من هذا المكان.

قرأ الفتى النواسى هذا التنبيه بين تلك الإعلانات، فامتلأ قلبه غبطة وابتهاجا، ورغم أنه قد فاز فوزا عظيما، لأنه ضايق الشيخ وأحرجه. وألح فى كتابة رسائله تلك إمعانا فى مضايقة الشيخ وإحراجه، ولم يكف عن ذلك إلا حين كف صاحباه عن الإلمام بالأزهر مخافة سوء العاقبة، واضطر هو إلى أن يهجر الأزهر كما هجره صاحباه.

على أن صاحبنا الفتى لم يلبث أن شغل، أو كاد يشغل، عن صاحبيه بياض النهار. فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التى أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف. أرضاه ذلك عن نفسه وأطمعه فى المزيد منه، فجعل يكتب فى الجريدة رغبة فى الكتابة أحيانا، وتقربا بها إلى مدير الجريدة أحيانا أخرى. وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله، ويغريه بالكتابة، ويحثه عليها حثا، ويعلمه القصد فى اللفظ والأناة فى التفكير.

وما هى إلا أن جعل يقربه إليه، ويدعوه إلى زيارته حتى أصبح الفتى ملازما لمكتب المدير، يلم به فى أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى، فلا يحجب عنه، وإنما يلقاه الأستاذ المدير هاشا له، مرحبا به، آخذا فى التحدث إليه والاستماع منه، فاتحا له أبوابا من التفكير، لم تكن تخطر له على بال، خائضا معه فى حديث الأدب القديم، راويا له من الشعر ما كان يحفظ وما لم يكن قد سمعه من قبل، حتى استأثر بقلب الفتى وعقله وحتى أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه وإعجابه، أحدهما يذكره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفي، والآخر يذكره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم فى الأزهر وجعل يدرس أطرافا من فلسفتهم فى الجامعة، وهو لطفى السيد.

وكان الفتى يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله، فيسمع له صوتا عذبا وحديثا لينا رقيقا، ويرى من وراء هذا اللين وتلك العذوبة عنفا أى عنف إن ذكرت السياسة، أو ذكر الأزهر وشيوخه، أو ذكر بعض الكتاب الظاهرين الذين لا يكتبون فى صحف الحزب الوطني، وكان يحبب العنف إلى الفتى ويرغبه فيه، ويزين فى قلبه الجهر بخصومة الشيوخ والنعى عليهم فى غير تحفظ ولا احتياط. فهو كان يرى أنهم آفة هذا الوطن يحولون بينه وبين التقدم بما كانوا يلجون فيه من المحافظة ويعينون عليه الظالمين بممالأتهم للخديو، ومصانعتهم للإنجليز.

وكان بغضه لسعد زغلول رحمه الله معروفا يتحدث به الناس. هجاه بمقالاته المشهورة التى جعل عنوانها: "ظلموك يا سعد". وهجاه هجاء منكرا فى بعض الشعرالذى لم ينشره لأنه كان أعنف من أن ينشر.

وقد أنشدنى قصيدة قالها فى السجن، وقد بلغه أن سعدا قد يعود إلى الوزارة أو يصبح رئيسا لمجلس الوزراء، لم أحفظ مها إلا مطلعها وهو بشع كما ترى:

إن صح ما أنهى الرواة لمسمعى   فلسوف تصبح تحت حكم الأقرع

وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله يقع نصيب غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السمجة التى كتبها الفتى، فشغل بها الأدباء والمثقفين حينا، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها وضيقه بها وخجله منها كلما ذكرت له. وكان موضوعها نقد "نظرات" المنفلوطى رحمه الله. وكان عنوانه: "نظرات فى النظرات".

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطى راضيا عنها، معجبا بها، ثم لم يلبث أن سئمها وانصرف عنها. ولكنه لم يكد يراها مجموعة فى كتاب حتى ضاق بها أشد الضيق، وكتب يعيبها ويغض منها. وفرح الشيخ عبد العزيز جاويش بما كتب الفتى أشد الفرح، واستزاده من الكتابة، وحرضه عليها وألح فى التحريض، حتى ألقى فى روعه ألا يدع فصلا من فصول المنفلوطى إلا اختصه بفصل من النقد. وكان الفتى قديم المذهب فى الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ، ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة. فكان عيب المنفلوطى عنده أنه يخطئ فى اللغة ويضع الألفاظ فى غير مواضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت فى "لسان العرب" ولا فى "القاموس المحيط".

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشىء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة. ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكد يقرأ أوله حتى طرب له وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب على من يحضر مجلسه ذاك. وابتهج الفتى حين سمع الثناء، وأحس الإعجاب، واستيقن أنه أصبح كاتبا ممتازا. ثم لم يذكر بعد ذلك أول هذا المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه، وسأل الله أن يتيح له التكفير عن ذنبه ذاك العظيم. وكان أول المقال: "عم صباحا أو مساء، واشرب هواء أو ماء، واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء".

كان بعض تبعة هذا السخف يقع على الشيخ عبد العزيز جاويش، ولكن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلا على الفتى أى فضل، فهو الذى ألقى فى روع الفتى فكرة السفر إلى أوربا حين قال له ذات يوم: "لابد من أن نصنع شيئا لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام". لم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى استقر فى نفسه أن ليس له بد من عبور البحر على أى نحو من الأنحاء. وقد لاحظ الفتى فيما بعد أن أحاديثه تلك عن المفلوطى قد شغلت الناس حتى

تحدث إليه فيها كل من كان يلقاه إلا رجلا واحدا لم يشر إليها قط على كثرة ما كان يلقى الفتى، وعلى كثرة ما كان يتحدث إليه، وهو مدير الجريدة لطفى السيد.

فهم الفتى، ولكن متأخرا، أن لطفى السيد لم يرض قط عن هذه الفصول. ولو قد رضى عنها، وعن بعضها، لتحدث إليه فيها، وهو الذى كان كثيرا ما يشجع الفتى فيتنبأ له مرة بأنه سيكون موضعه من مصر موضع فولتير من فرنسا، ويقول له مرة أخرى أنت أبو العلائنا. يتعمد إثبات الألف واللام على رغم الإضافة فى اسم أبى العلاء، ثم يضحك ويغرق فى الضحك حين يرى تنكر الفتى للجمع بين الإضافة وأداة التعريف.

أصبح الفتى كاتبا بفضل هذين الرجلين: لطفى السيد وعبد العزيز جاويش، وأصبح كاتبا لشيء آخر: وهو أنه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته فى الصحف لم يكتب إلا حبا للكتابة ورغبة فيها، لم يكسب بها درهما ولا مليما.

obeikandl.com

الفصل الرابع

عندما خفق القلب لأول مرة!

.. على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزه فأمعن فى تجاوزه، فهو الذى عرف الفتى إلى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر، كما كان يفعل الشعراء المعروفون، وحافظ منهم خاصة، فى بعض المناسبات العامة.

كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجرى كلما انقضى عام هجرى، وأقبل عام جديد. وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطنى احتفاله بهذا اليوم، فأقام حفلة ذات عام فى مدرسة مصطفى كامل، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابا وكهولا وشيبا، وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة، وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش، فرض عنها وحثه على أن يقول أمثالها.

فلما كان هذا الحفل شهده الفتى مع الشاهدين، ولكنه لم يكد يتخذ مكانه بين الناس، حتى أقبل من أخذ بيده وأجلسه على المنصة. ولم يقدر الفتى فى نفسه إلا أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ويتلطف له ويقربه من مجلسه، فرضى عن ذلك كل الرضا، وعده فضلا من الشيخ عظيما. وألقيت الخطب وصفق المصفقون، ولم يرع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن بين الناس، ورأى نفسه يدعى إلى إنشاد قصيدته العصماء! لبث فى مكانه جامدا واجما لا يدرى ماذا يصنع، ولا يعرف كيف يقول، وأقبل من أخذ بيده، وهم الفتى أن يمتنع حياء وخجلا، ولكن الذى أخذ بيده جذبه جذبا شديدا وجعل الذين من حوله يدفعونه وينهضونه حتى أنهضوه وجروه جرا إلى المائدة. واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجرأة، فأنشد قصيدته فى صوت ثابت ممتلئ، ولكنه لم يكن يستقر فى موقفه، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعادا، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال وأروعه حتى خيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظا أو قريبا من حافظ.

ثم مرت الأعوام وتبعتها الأعوام، واختلفت على الشيوخ وعلى الفتى خطوب أى خطوب، وتعاقبت أحداث فى مصر أى أحداث، وجلس الفتى ذات مساء إلى صديق له كريم، وقد جاوز الفتى سن الشباب والكهولة، وأخذ فى ذكر الصبا وأيام الطلب. وأنسى الشيخ شبابه وصباه وشغل عن حياته الماضية، وأعرض عن الشعر كل الإعراض بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط، وإنما قال سخفا كثيرا.

obeikandl.com

وإذا الصديق الكريم يذكره بموقفه ذاك فى مدرسة مصطفى كامل وإنشاده قصيدته تلك، ويذكر له مطلع تلك القصيدة، فيرثى الشيخ لما أضاع من شبابه وما أنفق من جهده فى غير طائل ولا غناء، ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحد، ولكنه علمه الكتابة فى المجلات، فقد أنشأ مجلة "الهداية"، وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها، ثم ترك له أو كاد يترك له الإشراف على هذا التحرير، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول. ولم تخل "الهداية" من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا. وكان خصمه الشيخ رشيد رضا، وقد أسرف الفتى على نفسه وعلى الشيخ رشيد فى ذلك الجدال. وكتب أحاديث استحى منها فيما بعد حين ذكرت له، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضيا وبها كَلِفًا. وقد أجاز نشرها وشجع الفتى على المضى فيها. كان يمقت من الشيخ رشيد ممالأته للخديو وانحرافه عن طريق الأستاذ الإمام، وما دفع إليه من إعجاب بنفسه واغترار بثناء الناس عليه وإعجابهم به.

ثم أضاف الشيخ إلى كل هذا الفضل فضلا آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء "من ذى الغلة الصادى" أرضاه عن بعض حاله، وأكبره فى نفسه شيئا، وأشعره بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك.

فقد أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة، وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرا. فالمدرسة عمل وطنى لا أجر عليه لمن يشارك فيه، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئا، وربما أنفق عليها من رزقه وكلف نفسه فى سبيل ذلك شيئا من الحرمان، وربما ألح على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكرههم على أن يعينوه على نفقاتها ببعض المال. وقد أقبل الفتى على تعليمه ذاك فرحا به مبتهجا له، يرى فيه شفاء لغيظه من الأزهر، ويرى فيه مع ذلك مشاركة فى بعض الخير.

ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة، صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة، ثم اضطر إلى أن يهاجر إلى مصر على غير انتظار لهجرته، ولم يره الفتى منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال، بعد أن عاد عودته تلك، فقد سافر من مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها، وعاد إلى مصر فجأة وعلى غير علم من أهلها أيضا.

وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة إلى الحياة العامة، وعلى أن يكون له اسم معروف. ومثل ذلك فعل الأستاذ أحمد لطفى السيد، فعرف الفتى إلى كثيرين من الذين كانوا يلمون بمكتبه فى الجريدة من الشيوخ والشباب، وفى مكتبه اتصل برفاق له أحباء عمل معهم فيما بعد، ولقى معهم خطوبا أى خطوب. عرف عنده هيكل ومحمود عزمى والسيد كامل، وكامل البندارى وأترابا لهم كثيرين، وعرف بفضله لونا من المعرفة لم يكن يقدر أنه

سيتاح له فى يوم من الأيام. فقد لقى عنده ذات يوم تلك الفتاة التى كان الناس يتحدثون عنها فيكثرون الحديث. لا لأنها كانت جميلة فاتنة، ولا لأنها كانت جذابة خلابة، ولكن لأنها كانت طامحة ملحة فى الطموح، ظفرت لأول مرة بالشهادة الثانوية، وكانت أول فتاة ظفرت بها، وهى نبوية موسى.

وكان الفتى قد لقى السيدات فى بيئته تلك الريفية، ولكنه لم يلق منهن القارئة الكاتبة البرزة التى تظهر فى مجالس الرجال وتحاورهم، فتلج فى المحاورة وتخاصمهم فتعنف ف الخصام، قبل أن يلقى تلك الفتاة.

واحتفل ذات مساء فى حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران رحمه الله، وكان الخديو قد أهدى إليه وساما، وكان شقيق الخديو الأمير محمد على رئيسا لهذا الاحتفال. وكان الشعراء سينشدون فيه الشعر، وكان الخطباء سيلقون فيه الخطب، فاعتذر الفتى إلى أستاذه فى الجامعة من حضور الدرس،ولم يكن يكره شيئا كما كان يكره التخلف عن الدروس، وآثر شهود ذلك الحفل. وفيه سمع كثيرا من الشعر وكثيرا من الخطب، فلم يحفل بشيء مما سمع، لم يعجبه شعر حافظ فى ذلك المقام، مع أنه كان كثير الإعجاب بشعر حافظ. ولم تعجبه قصيدة مطران لأنه لم يفهم منها شيئا، ولم يذق منها شيئا، وربما أحس فيها إسرافا من الشاعر فى التضاؤل أمام الأمير الذى أهدى إليه ذلك الوسام. فقد شبه نفسه بالنبتة الضئيلة، وشبه الأمير بالشمس التى تمنحها الحياة والقوة والنماء. لم يرض الفتى عن شىء مما سمع إلا صوتا واحدا سمعه فاضطرب له اضطرابا شديدا وأرق له ليلته تلك. كان الصوت نحيلا ضئيلا، وكان عذبا رائقا، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه فى خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل. ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئا، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئا. شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث. وكان صوت الآنسة مى التى كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى. ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته تلك أن يمتنع عن السعى على مدير الجريدة. وقد جلس إليه فقال له وسمع منه. ثم ما زال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران. وحتى انتهى من حفل مطران إلى ذكر تلك الفتاة التى تحدثت فيه، والتى لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك. وقد سأله مدير الجريدة عما قالت الفتاة فلم يحسن ردا، وإنما لجلج فى القول، وأثنى الأستاذ على مي، وأنبأ الفتى بأنه سيقدمه إليها فى يوم قريب. وابتهج الفتى بهذا الوعد وإن لم يعرب عن ابتهاجه، وظل يرقب البر به، ولكن الأستاذ نسيه. واستحيا الفتى أن يذكره فحمل نفسه على المكروه، وما أكثر ما كان يحملها على المكروه! وأعرض عن ذكر مي، واجتنب حديثها إلى الأستاذ. ومضت أيام وأشهر وظفر الفتى من الجامعة بدرجة الدكتوراه، وأعطى مدير الجريدة رسالته عن أبى العلاء، فقرأها ورضى عنها، ولكنه لم يردها إلى الفتى. وإنما قال له إنما سترد

إليك رسالتك بعد أيام، لأن الآنسة مى قد طلبت أن تقرأها، وسمع صاحبنا ذكر مي، فبدا عليه فيما يظهر شيء من وجوم. وكأن الأستاذ لاحظ ذلك فذكر وعده القديم وقال للفتى فى رفق: ألم أعدك بتقديمك إليها؟

قال الفتى: أكاد أذكر ذلك.

قال الأستاذ: فالقنى مساء الثلاثاء فسنزورها معا.

وفى مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه لأول مرة فى حياته فى صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال، حفية بهم، معاتبة لهم فى رشاقة أى رشاقة، وفى ظرف أى ظرف، وفى حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب.

وطال المجلس وكثر الزائرون، ودارت أكواب الشاى والفتى فى مكانه لا يكاد يحس من ذلك شيئا، قد ملك الوهم والوجل عليه أمره كله، فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط، وليس له عهد بمثل ما يجرى فى مثل هذه المجالس من المراسم ولا بما يتبع فيها من التقاليد والعادات. فهو منكر نفسه، منكر من حوله وما حوله، إلا شخصين اثنين هما الأستاذ لطفى السيد والآنسة مى.

وقد أخذ الزائرون فى الانصراف، ورغب الفتى فيه ليخلص من حرجه، وأشفق منه حرصا على صوت مى وحديثها، ولم يحاول أن ينصرف. فما كان له أن يحاول ذلك قبل أن يؤذنه به الأستاذ.

وقد انصرف الزائرون جميعا وخلا للأستاذ وتلميذه وجه مي، فخاضت مع الأستاذ فى بعض الحديث، وأثنت للفتى على رسالته فى أبى العلاء، فأغرقت فى الثناء، واستحيا الفتى شيئا، ولم يحسن أن يشكر لها ثناءها. ولكن الأستاذ يطلب إلى الفتاة أن تقرأ عليه مقالها ذاك. فتتردد الفتاة شيئا، ثم تقدم بعد أن تلعن إلى الفتى أنها تقرأ عليه مقالها ذاك. فتتردد الفتاة شيئا، ثم تقدم بعد أن تعلن إلى الفتى أنها تقرأ على الأستاذ هذا المقال لأنه هو الذى يعلمها العربية ويعلمها الكتابة.

قال الفتى فى صوت مختنق ولفظ مجمجم: كما يعلمنى أنا.

قالت مى: فنحن إذن زميلان.

وقرأت المقال، وكان عنوانه "وكنت فى ذلك المساء هلالا".

وسحر الفتى، ورضى الأستاذ، وانصرفا بعد حين، وفى نفس الفتى من الصوت ومما قرأ شيء كثير!

الفصل الخامس

أستاذى يدعو على بالشقاء!

وكانت حياة الجامعة فى أول عهد المصريين بها عيدا متصلا يحيونه إذا أقبل المساء من كل يوم، حين يزدحمون على غرفات الدرس على اختلاف منازلهم من الفقر والغنى، وعلى اختلاف حظوظهم من الثقافة، وعلى اختلاف أزيائهم أيضا. فكان منهم الغنى المترف والفقير الذى لا يجد ما ينفق، وكان منهم القاضى والطبيب والطالب والموظف والمجاور فى الأزهر الشريف.

وكان منهم غير أولئك قوم لم يأخذوا من العلم إلا بأيسر أسبابه، ولكنهم كانوا يختلفون إلى هذه الدروس والمحاضرات ليروا ويسمعوا ويمتعوا أنفسهم أن أتيح لهم المتاح. وقد جعلت غرفات الجامعة تضيق بهؤلاء المختلفين إليها والمزدحمين عليها. وعجز الأساتذة عن أن يسمعوا هذه الأعداد الضخمة التى كانت تكتظ بها الغرفات. فقرر بعضهم أن يلقى محاضرته مرتين. ولم ير الطلاب بهذا بأسا. كانوا يستبقون ليسمعوا الأستاذ فى محاضرته الأولى. فمن حيل بينه وبين ذلك انتظر المحاضرة الثانية. وكانوا ينتظرون فى أبهاء الجامعة وحديقتها. وكان أهل السعة منهم يذهبون إلى قهوة كوبرى قصر النيل القريبة. فيشربون أو يطعمون، حتى إذا قرب موعد المحاضرة أسرعوا إليها مشغوفين بها إلى أقصى غايات الشغف. واضطرت الجامعة إلى أن تنظم دخول غرفات الدرس، فلا تأذن به إلا لمن قدموا بطاقات الانتساب وصدت بذلك عددا غير قليل من الذين كانوا يسعون إلى هذه الدروس كما كانوا يسعون إلى المحاضرات العامة.

وأقبل الفتى ذات مساء بصحبة غلامه الأسود، فلما بلغ الغرفة أظهر بطاقته، وقد كان بها ضنينا وعليها حريصا. وقيل له تستطيع أنت أن تدخل، فأما غلامك هذا فلا حق له فى الدخول.

وأظهر الفتى شيئا من ضيق، ولكن صاحب الباب لم يحفل بضيقه ولا بإنكاره. ولا بتوسل من كان حوله من الطلاب، ولا بحاجته إلى أن يصبحه هذا الغلام حتى يجلسه فى مكانه ثم يرجع أدراجه فينتظر من وراء الباب حتى ينقضى الدرس.

واضطر الفتى إلى أن يفزع إلى السكرتير العام أحمد زكى بك شاكيا، وصحبه بعض الطلاب الساخطين على جهل صاحب الباب وعنفه وغلظة ذوقه، وأدخل الفتى وأصحابه على السكرتير العام، وقصوا عليه قصتهم، ولكنهم لم يجدوا عنده شيئا، وإنما قال لهم فى هدوء: النظام هو النظام.

وهم بعض الطلاب أن يجادله فى ذلك فقال له متجهما: وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك ألا يشهد هذه المحاضرات؟

وانصرف أولئك النفر من الطلاب ساخطين على السكرتير العام سخطا أشد وأعظم من سخطهم على صاحب الباب. وقالوا للفتى: لا بأس عليك، سنصحبك نحن إلى مجلسك.

وصحبوه إلى مجلسه متلطفين له متحببين إليه، وردوه إلى غلامه بعد انقضاء الدرس، وجعلوا منذ ذلك اليوم لا يرون الفتى مقبلا حتى يحيطوا به من قريب، فإذا بلغ الغرفة أخذ أحدهم بيده، وصحبه إلى مجلسه، ثم رده إلى غلامه بعد ذلك، ولو أطاع الفتى نفسه فى ذلك المساء لانصرف عن الجامعة ولحرم على نفسه الاختلاف إلى دروسها.

ولكن الجامعة كانت أحب إليه وآثر عنده من كبريائه تلك السخيفة.

وهو على ذلك لم ينم ليلته تلك، وإنما أنفقها مسهدا محزونا، يذكر كيف لقى مثل هذه القسوة حين أراد أن ينتسب إلى الأزهر فى آخر الصبا وأول الشباب، وحين تقدم لأداء الامتحان فى حفظ القرآن. فقال له أحد ممتحنيه: اقرأ يا أعمى سورة الكهف!

وذكر الفتى بعد سنين قصته هذه فى الجامعة، وقصته تلك فى الأزهر، حين دخل غرفة الدرس لأول مرة فى جامعة مونبيليه، فسمع الأستاذ يقول لصاحبه: أيكون زميلك هذا مكفوفا!

قال الزميل: نعم.

قال الأستاذ: فإنى أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته.

وكان الفتى حديث عهد بأوربا لم يعرف بعد أن الناس يرفعون قلانسهم حين يدخلون مكانا مسقوفا، وأنهم يحضرون الدروس حاسرى الرءوس.

وكذلك قضى على أن الفتى أن يستقبل طلبه العلم فى الأزهر والجامعة المصرية والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك تؤذى نفسه وتفرض عليه ليلة ساهرة. ثم يعرض عنها بعد ذلك. لأنه لم يكن يرى بدا مما ليس منه بد. وما أكثر ما ذكر بيت أبى العلاء:

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟!

وما أسرع ما كان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشترى هذا النسيان بليلة ينفقها مسهدا محزونا! ثم يقبل بعد ذلك على ما لم يكن بد من الإقبال عليه من العلم فى الأزهر وفى الجامعة المصرية وفى جامعات فرنسا.

كان الفتى يرى حياته فى الجامعة عيدا متصلا، كما كان يراها غيره من المصريين، ولكنها كانت بالقياس إليه عيدا تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل. كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة فى الأزهر، وفى حوش عطا أو درب الجماميز إلى بيئة أخرى واسعة لا حد لسعتها، فهى كانت تتيح له أن يملأ رئتيه من الهواء الطلق حين يسعى إلى الجامعة وحين يعود منها، وأن يملأ عقله من العلم الطلق الذى لا يقيده تحرج الأساتذة الأزهريين فيما كانوا يلقون من الدروس، ولا يفسده الإسراف فى القنقلة والجدال حول هذا اللفظ أو ذاك، وإضاعة الوقت فى الإعراب حين لا يكون بين الدرس وبين الإعراب صلة.

وكانت هذه البيئة تتيح له كذلك علما يخلق نفسه خلقا جديدا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة فى الأدب وفى ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها فى يوم من الأيام. ولم ينس الفتى يوما خاصم فيه ابن خالته الذى كان طالبا فى دار العلوم ولج بينهما الخصام. فقال الدرعمى للأزهرى: ما أنت والعلم! إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه، لم تسمع قط درسًا فى تاريخ الفراعنة! أسمعت قط اسم رمسيس أو إخناتون؟!

وبهت الفتى حين سمع هذين الاسمين، وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ. واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها. ولكنه يرى نفسه ذات ليلة فى غرفة من غرفات الجامعة يسمع الأستاذ أحمد كمال رحمه الله يتحدث عن الحضارة المصرية القديمة، ويذكر رمسيس وإخناتون وغيرهما من الفراعنة، ويحاول أن يشرح للطلاب مذهبه فى الصلة بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية، ومنها اللغة العربية.

ويستدل على ذلك بألفاظ من اللغة المصرية القديمة يردها إلى العربية مرة وإلى العبرية مرة وإلى السريانية مرة أخرى. والفتى دهش ذاهل حين يسمع كل هذا العلم، وهو أعظم دهشة وذهولا حين يلاحظ أنه يفهمه ويسيغه فى غير مشقة ولا جهد.

وهو يعود إلى بيته ذلك المساء وقد ملأه الكبر والغرور، ولا يكاد يلقى ابن خالته حتى يرفع كتفيه ساخرا منه ومن دار علومه تلك التى كان يستعلى بها عليه. وهو يسأل ابن خالته أتتعلمون اللغات السامية فى دار العلوم؟! فإذا أجابه بأن هذه اللغات لا تدرس فى المدرسة أخذه التيه. وذكر العبرية والسريانية ثم ذكر الهيروغليفية. وحاول أن يشرح لزميله كيف كان المصريون القدماء يكتبون. وتنقل الآية ويصبح المغلوب غالبا والغالب مغلوبا.

ويمضى العام الأول من الحياة الجامعية عيدا كله، لا يحس الفتى سأما منه أو ضيقا به، وإنما يحس الحزن الممض حين تبدو طلائع الصيف.

obeikandl.com

وينفق الإجازة كلها مفكرا فيما سمع، ومشوقا إلى ما سيسمع فى العام المقبل، ومتسائلا عمن يبقى من الأساتذة الذين عرفهم ومن يدعى من أساتذة لم يعرفهم. ثم لم يلبث أن تستأثر الجامعة بعقله كله وجهده كله، وأن تشغله عن كل شيء آخر. فقد أقبل أساتذة جدد ملكوا عليه أمره واستأثروا بهواه. فهذا الأستاذ كارلو نالينو المستشرق الإيطالى يدرّس باللغة العربية تاريخ الأدب والشعر الأموي. وهذا الأستاذ سنتلانا يدرس بالعربية أيضا، وفى لهجته تونسية عذبة، تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الترجمة خاصة. وهذا الأستاذ ميلونى يدرس باللغة العربية كذلك تاريخ الشرق القديم. ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبل فى مصر. فهو يفصل تاريخ بابل وآشور، ويذكر الكتابة المسمارية، ويتحدث عن قوانين حامورابي، والفتى يفهم عن هؤلاء الأساتذة كل ما يقولون، لا يجد فى فهمه التواء أو عسرا، وهو لا يكره شيئا كما يكره انتهاء الدروس، ولا يتشوق إلى شيء كما يتشوق إلى ما سيستقبل منها.

وهذا أستاذ ألمانى، هو الأستاذ ليتمان، قد أقبل يتحدث إلى الطلاب عن اللغات السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية، ثم يأخذ فى تعليمهم بعض هذه اللغات. وإذا الفتى يخرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما لولا أنه يعيش بين زملائه من الأزهريين والدرعميين وطلاب مدرسة القضاء وجه النهار وشطرا من الليل.

ولكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأيا تاما، واتصل بأساتذته أولئك اتصالا متينا. فكلهم قد عرفه، وكلهم قد آثره بالحب والرفق والعطف، وكلهم قد أدناه من نفسه، ودعاه إلى أن يزوره فى فندقه، وأحب أن يقول له ويسمع منه، ولم ينس الفتى موعدا ضربه لأستاذه سنتلانا ذات صباح، ليحضر معه درسا من دروس الأزهر، وقد أقبل الأستاذ إلى حين كان ينتظره تلميذه أمام الرواق العباسي. وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ الأكبر الشيخ سليم البشرى رحمه الله، وكان يلقى درسه فى التفسير مع الصباح بالرواق العباسي. وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب، وأخذ الشيخ يفسر آية كريمة من سورة الأنعام هى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وفسر الشيخ . رحمه الله . فأحسن التفسير، وخاض فى حديث الجبر والاختيار، وجعل يرد على الجبريين ويدفع مقالتهم، ويأخذ الفتى فى حوار الشيخ على عادة الأزهريين، فيسمع الشيخ له ويرد عليه ردا لا يقنعه، ويأبى الفتى إلا اللجاج، فينهره الشيخ بهذه الكلمات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن! الله أكبر على العلم والإيمان. حضرتك مسلم؟

ويهم الفتى أن يجيب، ولكن الشيخ ينهره فى سخرية غاضبة قائلا: اسكت يا شيخ جاتك الكلاب خلينا نقرأ.

ثم يمضى فى حديثه غير حافل بالفتى، ولكن الفتى يهم أن يتكلم، وإذا أستاذه الإيطالى يمس كتفه مسا متصلا، وهو يقول له هامسا بعربيته التونسية العذبة: اسكت، اسكت، ليضربك!

يميل بالضاد إلى الظاء، ويرى الفتى نفسه مغرقا فى ضحك خفى لا يدرى أكان مصدره سخرية الشيخ منه أم رفق الأستاذ الإيطالى به وإشفاقه عليه؟!

فإذا انتهى الدرس ذهب الفتى بأستاذه الإيطالى إلى إدارة الأزهر، واستأذن له على الشيخ الأكبر، فأذن له، وتلقاه حفيا به متلطفا له فى الحديث. ثم ينظر إلى الفتى فيسأله فى رفق: أأنت الذى كان يجادل فى الدرس؟

قال الفتى: نعم..

قال الشيخ متضاحكا: ما شاء الله! ما شاء الله! فتح الله عليك وأشقاك بتلاميذك كما يشقى بك أساتذتك!!

openkandil.com

الفصل السادس

أساتذتى

ولم تكن حياة الجامعة عيدا متصلا رائع الإمتاع لمكان الأساتذة الأجانب فيها فحسب، بل كان فيها أساتذة مصريون يضيفون إلى روعتها روعة وإلى إشراقها إشراقا. ولم ينس الفتى طائفة من هؤلاء الأساتذة كان لهم فى حياته أبعد الأثر وأعمقه، لأنهم جددوا علمه بالحياة وشعوره بها وفهمه لقديمها وجديدها معًا، وغيروا نظرته إلى مستقبل أيامه، وأتاحوا لشخصيته المصرية العربية أن تقوى وتثبت أمام هذا العلم الكثير الذى كان يأتى به المستشرقون، وكان جديرا بأن يحول هذا الفتى تحويلا خطيرا يفنيه فى العلم الأوربى إفناء، ولكن أساتذته المصريين هؤلاء أتاحوا له أن يأوى إلى ركن شديد من الثقافة الشرقية الخالصة، وأتاحوا لمزاجه أن يأتلف ائتلافا معتدلا من علم الشرق والغرب جميعا. وكان الأساتذة المصريون يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا، كان منهم المطربشون والمعممون والذين سبقت العمامة إلى رءوسهم ثم انحسرت عنها وجاء مكانها الطربوش.

وكان منهم الصارم الحازم الذى لم يكن ثغره يعرف الابتسام إلا قليلا، والمازح الباسم الذى لم يكن وجهه يعرف العبوس إلا نادرا. وكان منهم ذو العلم العميق العريض الذى يبهر ويسحر ويذكر القلوب والعقول، وذو العلم الضحل والثقافة الرقيقة الذى يخلب باللفظ ثم لا يكون وراء لفظه الخلاب شيء ذو بال.

وكان منهم من يخلب بلفظه العذب ودعابته الساحرة وعلمه الغزير. كان منهم إسماعيل رأفت، رحمه الله، ذلك الذى لم يكن يعرف من طلابه إلا أنهم يحملون رءوسا يجب أن يصب العلم فيها صبا. فكان يقبل عليهم عابسا وينصرف عنهم عابسا. لا يلقى إلى أحدهم كلمة، وإنما يأخذ مجلسه ويبسط أوراقه ويأخذ فى القراءة حتى تنتهى ساعة الدرس لا يقطعها إلا حين يفسر ما يحتاج إلى التفسير، وحين يلقى على الطلاب هذا السؤال الذى تعود أن يلقيه فى دار العلوم. وقد كان أستاذا فيها: فاهمين يا مشايخ؟

وقد سمع الفتى منه وصف إفريقيا على اختلاف أقطارها وعلى اختلاف ما يكون لهذا الوصف من صور يتصل بعضها بطبيعة الإقليم، ويتصل بعضها الآخر بالسياسة والاقتصاد ونظم الحياة الاجتماعية وأجناس السكان.

وقد سمع الفتى فيما بعد دروسا مختلفة فى الجغرافيا من أساتذة ممتازين فى جامعات فرنسا، فلن يحس لأحدهم فضلا على أستاذه ذلك المصرى العظيم.

openkanda.com

وكان من هؤلاء الأساتذة حفنى ناصف، رحمه الله، وكان ابتساما كله وفكاهة كله وتواضعا كله، على غزارة فى العلم، وأصالة فى الفقه بما كان يدرس من الأدب العربى القديم، وكان الطلاب يكلفون به أشد الكلف، ويطمعون فيه أعظم الطمع، وكان بعضهم ربما انصرف عن دروسه ليجلس إليه فى قهوة كوبرى قصر النيل التى كان يجلس فيها ساعة قبل الدرس من يوم الخميس من كل أسبوع.

وكان الطلاب يأبون عليه أن يختم دروسه فى آخر العام دون أن يزيدهم على المقرر درسين أو دروسا. وكان الفتى لسانهم حين كانوا يرغبون إليه فى ذلك. وكان الفتى يطلب إليه المزيد من الدرس نثرا حينا وشعرا حينا مستعطفا مرة ومنذرا مرة أخرى. وكان . رحمه الله . قد شرح كتاب "الكافى فى العروض" حين كان طالبا فى الأزهر. وكان يخجل من هذا الشرح ويكره أشد الكره أن ينسب إليه.

فكان الفتى يقسم له فى آخر العام لئن لم يضف إلى المقرر دروسا لينسبن إليه شرح الكافى فى مقال ينشره فى الجريدة. وكان . رحمه الله . يستجيب فيضيف درسين، وربما أضاف أربعة دروس.

وكان أروع صورة عرفها الفتى لتواضع الأستاذ، أنه لم يتكلف قط ذلك الوقار المصنوع الذى يتكلفه بعض الأساتذة حين يرقون إلى مجلسهم فى غرفة الدرس، وإنما كان يخلط نفسه بطلابه كأنه واحد منهم لولا أنه كان يكبر أكثرهم سنا . فقد كان بين طلابه من تقدمت به السن كثيرا.

وقرأ الفتى ذات يوم فى الجريدة حديثا لأحد القراء يطرح فيه موضوعا لمسابقة شعرية، ويجعل لهذه المسابقة جائزة هى كتاب "الأمالى" لأبى على القالى، ويحكم بين المستبقين الأستاذ حفنى ناصف وتلميذه ذاك الفتى. وأنكر صاحبنا أن يقرن إلى أستاذه، وأحس شيئا من غرور. ولكن يجلس ذات مساء فى بيته بدرب الجماميز مع جماعة من رفاقه يأخذون بعض ما كانوا يخوضون فيه من حديث، وإنهم لفى ذلك وقد تقدم بهم الليل وإذا الباب يطرق عليهم. فإذا أدخل الطارئ، وجم الفتى ودهش الرفاق. فلم يكن الطارق إلا الأستاذ حفنى بك ناصف، قد جمع شعر المستبقين فى الجريدة، وسعى به إلى تلميذه فى بيته ذاك فى الطبقة السادسة من تلك الدار التى كان يسكنها، وقال له فى رفق عذب: أتيت لأخلو إليك ساعة نفرغ فيها من قضية هؤلاء المستبقين.

وكان من بين الأساتذة المصريين الشيخ محمد الخضري، رحمه الله. كان يدرس التاريخ الإسلامي، وقد سحر الفتى بعذوبة صوته وحسن إلقائه وصفاء لهجته، وأحب دروسه فى السيرة

وفى تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم وفى تاريخ الفتن ودولة بنى أمية والصدر الأول من دولة العباسيين. وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم، ولكنه لم يكد يسمع دروس التاريخ فى أوربا حتى عرف أن الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه من كتب القدماء فى غير نقد ولا تعمق وفى أيسر ما كان يمكن من فقه التاريخ.

وكان من الأساتذة المصريين أستاذان أحبهما الفتى أشد الحب، وعبث بهما أشد العبث، واستغل سذاجتهما ووداعتهما أشنع الاستغلال. كان أحدهما الشيخ محمد المهدى، رحمه الله، أقبل يدرس الأدب العربى بعد حفنى ناصب، فكان الفرق بين الأستاذين خطيرا بعيد المدى. كان أحدهما عميق العلم، وكان الآخر أبعد ما يكون عن العمق. كان أحدهما سمحا لا يتكلف ولا يتصنع، وكان الآخر متكلفا متفاصحا لا يتكلف إلا العربية الفصحى مغربا فيها يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابه، وكان يقدم السيجارة إلى الفتى، فإذا هم الفتى أن يشغلها قال له: "انتظر يا بنى حتى ألفها لك..!" ولم يكد الطلاب يسمعون هذه الكلمة حتى يغرقوا فى ضحك لا يستخفون به. وكان الأستاذ يضحك معهم ويغرق فى الضحك!

وكان الفتى جريئا عليه يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره عسرا، وربما أضحك منه الطلاب، لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر، ولأن الفتى كان يرده إلى الصواب. فيظهر عليه الاضطراب. وقد حاول أن يصده عن هذا الجدال، ويصرف أترابه عن هذه الجراءة، فدعاهم ذات يوم إلى الغداء فى داره. وقدم إليهم من طيبات الطعام ما لم يكن لأكثرهم به عهد، وظن أنه قد ردهم إلى شىء من الحياء. ولكنه لم يلبث أن تبين أنه لم يزد على أن أطمعهم فى نفسه، ورغبهم فى طعامه، وزادهم عليه اجتراء. وكان سيرة الفتى مع هذا الأستاذ الكريم مسرفة على الفتى وعلى الأستاذ جميعا حتى أوشكت أنت تترك فى حياة الفتى آثارا منكرة.

وضع الفتى رسالته التى تقدم بها للدكتوراه، ونقد فيها أستاذه مصرحا باسمه، وكان الأستاذ من الممتحنين، فضاق بهذا النقد، وأبى فى أثناء المداولة أن يمنح الفتى درجة الامتياز، ولم يكن سبيل إلى هذه الدرجة إلا إذا أجمع عليها الممتحنون. فاضطرت اللجنة إلى أن تنزل بالفتى من درجة فائق إلى جيد جدا.

وسافر الفتى إلى أوربا فأقام بها عاما، ثم عاد منها فى خطوب سيأتى حديثها.

وفى أثناء إقامته فى مصر ذهب إلى الجامعة واستمع لدرس الشيخ مهدى، ثم خرج فكتب عن هذا الدرس مقالا فى مجلة "السفور" نقد الأستاذ فيه نقدا مرا ممضا. وأسرع الأستاذ فكتب إلى مجلس الجامعة شاكيا من هذا التلميذ المتمرد، طالبا إلغاء بعثه عقابا له على هذا التمرد، وكان أن أمر المجلس بالتحقيق مع الفتى، وكلف ثروت باشا وعلوى باشا، رحمهما الله،

obeikandl.com

والأستاذ أحمد لطفى السيد، سؤال الفتى عن هذا المقال، فلم ينكر من مقاله شيئا. ولم ير لأحد الحق فى أن يعاقبه على نقد حر برئ، لم يرد به إلا الخير، ولم ير لأحد حقا فى أن يسأله فى هذا النقد، وتضاحك المحققون، وكلف مجلس الجامعة الأستاذ أحمد لطفى السيد أن يصلح بين الأستاذ الغاضب والتلميذ المتمرد، فحضر الأستاذ لطفى السيد ذات مساء درس الشيخ، ثم دعاه ودعا التلميذ إلى العشاء، وفى العشاء كان الصلح، وعاد الفتى بعد ذلك إلى أوربا موفورا.

وكان الأستاذ الآخر الذى ملأ الجامعة فكاهة ودعابة، وملأ الطلاب عبثا به واجتراء عليه، وملأ بطون الطلاب من طعامه، هو الشيخ طنطاوى جوهري، رحمه الله.

كان يدرس الفلسفة الإسلامية بعد الأستاذ محمد سلطان وبعد الأستاذ سنتلانا خاصة. وكان يتكلم كثيرا ولا يقول شيئا، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جريانا على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها فأسرف فى المد، وربما أخذه شىء من ذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب فى ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر؛ ويفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك، فيلوم الطلاب لا على أنهم يضحكون، بل على أنهم لا يشاركونه فى الإعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل، ويمد ياء النيل فيسرف فى مدها ويأخذه ذهول يرد الطلاب إلى ضحك متصل.

وفى ذات يوم ختم الأستاذ دروس العام، وقرر الطلبة قبل الدرس أن يكون الفتى لسانهم فى شكر الأستاذ على دروسه القيمة، واشترطوا عليه أن يشكر الأستاذ بكلام غير مفهوم، واشترط عليه الأستاذ إبراهيم مصطفى ألا تخلو جملة من حديث الشكر هذا الذى يجب أن يكون طويلا من إحدى هذه الكلمات الست: الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق.

وقبل الفتى هذه الفتى الشروط كلها، فخطب وأجاد، ولكنه لم يقل شيئا، ورضى الأستاذ كل الرضا، وقال للفتى: لا يكافئ هذه الخطبة الرائعة إلا ديك رومي، ولكنك لن تأكله وحدك، وإنما يشاركك فيه زملاؤك جميعا. فإذا كان يوم الجمعة فأنتم تعرفون أين أقيم!

ولم يكن الأساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة ويتعرضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجنة، وإنما كان الأساتذة الأجانب مصدرا من مصادر الفكاهة وموضوعا من موضوعات العبث. كانت لهجتهم العربية تملأ أفواه الطلاب بالضحك، وكان منهم الذين يلوون ألسنهم بالعربية يقلدون هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذتهم الإيطاليين أو الألمانيين، ولم ينس الفتى يوما قرر فيه الطلاب أن يضربوا عن درس الأستاذ نالينو الإيطالى، لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس، فأزمع الطلاب أن يجتمعوا فى غرفة

الدرس، حتى إذا أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيدا. وقد أتم الطلبة ما قرروا، فتركوا الأستاذ وحيدا فى غرفة الدرس، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره؛ ولبث الأستاذ فى الغرفة دقائق ثم خرج، فأقبل على تلاميذه وقال لهم فى لهجة عربية صحيحة فصيحة يلتوى بها لسانه بعض الشيء: مثلكم مثل الرجل الذى أراد أن يغيظ امرأته فخصى نفسه!!

وكان السهم صائبا، وكان أثره لاذعا ممضا، ومنذ ذلك اليوم لم يفكر الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف.

وكانت دروس الآداب الإنجليزية والفرنسية تلقى فى الجماعة ويشهدها الذين يحسنون هاتين اللغتين من الطلاب، ويتجنبها الفتى لأنه لم يكن يعرف لغة أجنبية. ولكن الجامعة نُظمت ذات يوم، وفُرضت فيها الامتحانات، وفُرض فيها العلم بلغة أجنبية من هاتين اللغتين. وأقبل الفتى ذات يوم مع زميله المرصفى .وللمرصفى حديث طويل سيأتى فى إبانه .فاتفقا على أن يسمعا درس الأدب الفرنسي، ليعرفا كيف تكون هذه اللغة، فدخلا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يفهما فيها حرفا مما سمعا، ولم يميزا منه إلا لفظا واحدا هو لافونتين الذى كان يتردد كثيرا جدا على لسان الأستاذ.

ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة إلا أنهما سمياها سجن لافونتين. وقد كان لهذه الساعة مع ذلك فى حياتهما أثر أى أثر. فأما المرصفى فعدل عن الجامعة، وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها، واتخذها مكانا يلقى فيه الصديق، ويتفكه فيه البعث من بعض الأساتذة.

وأما الفتى فأزمع أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود إلى سجن لافونتين، وكانت له فى تعلم هذه اللغة خطوب أى خطوب.

الفصل السابع

كيف تعلمت الفرنسية!

كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض صديقه من الأزهريين بأن مدرسية مسائية أنشئت فى مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين.

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش، رحمه الله، يد فى إنشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى تحقيقا واضحا، ولكنه ذهب إلى المدرسة فيمن ذهب إليها من الطلاب، وسمع الدرس الأول من دروسها. ألقاه كهل مصرى كان يحسن أن يلوى لسانه فى النطق بالحروف، وكان الفتى يبهره هذا النطق. ولكنه لم يفهم من هذا الدرس شيئا، فقد كان الأستاذ يرسم الحروف على اللوحة وينطق بها، ويأخذ الطلاب بأن ينطقوا بهذه الحروف كما سمعوها منه، وبأن ينظروا إليها مرسومة، وينقلوها فيما أمامهم من الأوراق، وظل الفتى واجما لا يرى الحروف ولا يرسمها. ولم يسأله الأستاذ أن ينطق بها، وإنما كان يسأل من عن يمينه ومن عن شماله ويمر به هو بدون أن يلوى عليه.

وضاق الفتى بذلك أشد الضيق، ولكنه لم يستطيع أن يقول شيئا، ثم تفرق الطلاب وهم الفتى أن ينصرف. ولكن يدا توضع على كتفه وصتا يطلب منه الانتظار، وإذا هو الأستاذ قد استوقف الفتى، حتى إذا خلا إليه قال له: ليس لك أرب فى حضور هذه الدروس، ولكنى أرى فيك حرصا على تعلم هذه اللغة وأحب أن أعينك على ما تريد، فالقنى إن شئت فى قهوة كوبرى قصر النيل نتحدث فى هذا الموضوع.

وضرب له موعدا لهذا اللقاء، ولم يكادا يلتقيان حتى تعارفا. وإذا بينهما صلة قديمة. فقد كان أبو هذا الأستاذ قاضيا شرعيا فى المدينة التى نشأ فيها الفتى، وعليه قرأ الفتى ألفية ابن مالك. كان يختلف إليه فى المحكمة ضحى كل يوم، ويقرأ عليه بابا من أبواب الألفية. وقد اتصلت المودة بين الأستاذ الكهل وتلميذه الفتى، ولكن دروس هذا الأستاذ لم تغن عن التلميذ شيئا. فقد كان يحب كتابا وشعراء من الفرنسيين، فإذا خلا إلى الفتى قرأ عليه من آثار هؤلاء الكتاب والشعراء وترجم له بعض ما يقرأ، فيزيد شوق الفتى إلى العلم بلغة هؤلاء الكتاب والشعراء لروعة ما كان ينقل إليه من آثارهم. وقد سمع الفتى من أستاذه أسماء كانت تسحره وتبهره وتملك عليه أمره كله. سمع اسم لامارتين وألفريد دوموسيه وألفرد دى فينى وشاتوبريان؛ فكان موقع هذه الأسماء غريبا، وكان ما ينقل إليه من كلامهم أشد غرابة من أسمائهم يبعد الفتى عن الأدب

العربى والشعر القديم خاصة، ويدفعه إلى عالم آخر مجهول لا يحقق الفتى منه شيئا، ولكنه يهيم بالاضطراب فيه كل الهيام. وقد اضطر آخر الأمر إلى أن يبحث عن معلم يلقنه أوليات هذه اللغة تلقينا منظما منتجا، ومازال يبحث عنه حتى دل عليه.

فأقبل على دروسه كل يوم من الساعة الثانية إلى منتصف الخامسة، واستبقى مع ذلك مودة أستاذه ذاك. فكان يلقى أستاذه النظامى كل يوم فى موعده المحدد، فيتعلم منه الأوليات، ويلقى أستاذه الآخر مرتين فى الأسبوع إذا أقبل الليل ليسمع منه نثرا وشعرا ينقل إليه بعض معانيهما.

وكان الأستاذ النظامى رجلا غريب الأطوار حقا. كان شيخا قد نيف على السبعين وقد حطمته السنون، وكان ألبانيا، وكان قذرا تنبو عنه العيون. وكان معدما لا يجد ما يقوته، وكان يصيب غداءه مع الفتى كل يوم ثم لا يأخذ منه أجرا لدروسه، وكان سريع التعب لا يكاد يتحدث إلى الفتى دقائق حتى يدركه الإعياء فيغفى لحظة ثم يفيق ليأخذ فيما كان فيه، ثم يعود إلى الإغفاء، ثم يعود بعد ذلك إلى الإفاقة.

وكذلك كان الفتى يختطف دروسه اختطافا بين يقظة الأستاذ ونومه، وربما أحس الأستاذ شدة الحر إذا أقبل الصيف وأراد أن يتبرد، فوقف الدرس، وذهب إلى الحمام، فصب على نفسه من ماء الدش ما شاء الله أن يصب. ثم عاد إلى تلميذه وقد أحدث شيئا من نشاط، ولكنه لا يكاد يمضى فى درسه حتى تأخذه سنته تلك، فيضطر التلميذ إلى الانتظار به حتى يفيق.

على أن هذا الأستاذ لم يلبث أن ضاق به أخو الفتى أشد الضيق. كان يأتى إذا دنت الساعة الثانية وينصرف إذا انتصفت الساعة الخامسة، ويترك فى البيت من قذارته آثارا غلاظا، بعضها حى يؤذى، وبعضها ميت يمض، حتى شكا الخادم وضاق أخو الفتى بما كان يرى، وبما كان يسمع. وصرف الأستاذ صرفا رقيقا.

والتمس صاحبنا لنفسه أستاذا آخر، وجعل ينتقل بين معلم ومعلم، ويجد فى هذا التنقل مشقة أى مشقة، ومتاعا أى متاع. تأتى المشقة من أجر الدروس الذى لم يكن له بد من أن يؤديه إلى معلميه، ويأتى المتاع من اختلاف هؤلاء المعلمين، وتباين أطوارهم وخصائصهم حين كانوا يتحدثون إليه، ويلقون علمهم عليه. حتى لقى الفتى ذات يوم فى الجامعة فتى كان قد ظفر بالشهادة الثانوية وتعلم فى مدرسة الفرير، فكان متقنا للفرنسية، ولم يكد يتحدث إليه حتى ذكر صباه كله، فقد كان هذا الفتى ابن ملاحظ الطريق الزراعية فى مدينته، وكان يختلف مع أخته إلى الكتاب الذى حفظ الفتى فيه القرآن فقد لقى الفتى إذا رفيق صباه، ويسر له تعلم اللغة

الفرنسية فى غير مشقة ولا عناء وأى شيء أيسر من أن يتعلم الفرنسية لا يدفع على تعلمها أجرا وإنما يعلم رفيقه قواعد النحو والصرف!

وبفضل هذا الرفيق محمود سليمان، رحمه الله، خطا الفتى فى درس الفرنسية خطوات بعيدة، علمه رفيقه كما تعلم هو فى المدرسة. قرأ معه الكتب الأولى، وما زال يتدرج به من كتاب إلى كتاب حتى رأى نفسه ذات يوم يقرأ مع رفيقه قصة كانديد لفولتير، يتعثر فى فهمها تعثرا شديدا متصلا، ولكنه يفهم منها شيئا. ورأى الفتى نفسه يختلف إلى دروس الأدب الفرنسى فتفوته أشياء ويصيب أشياء، والأستاذ يعطف عليه ويرفق به، ورفيقه يعينه على فهم ما يفوته؛ وإذا هو يتقدم فى الدرس تقدما حسنا، ويشعر أن أمر اللغة الفرنسية قد أصبح يسيرا، فليس له بد من أن يحسنها، وهو قادر على أن يحسنها إن مضت أموره على ما يحب.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس إليه وسيلة بعد أن كانت غاية، فقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش فى روعة فكرة السفر إلى أوربا. وإلى فرنسا خاصة، فما له لا يفكر فى هذا السفر؟ وما يمنعه أن يبتغى إليه الوسيلة؟ والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه، وأصبحت جزءًا من حياته، وجعل ينظر إليها لا على أنها حلم يداعبه نائما أو يقظان، بل على أنها حقيقة يجب أن تكون. وأغرب من هذا أن الفتى جعل يتحدث بسفره إلى أوربا كما يتحدث الإنسان عن أمر قد صحت عزيمته عليه، وقد تهيأت له أسبابه، وكان يتحدث إلى إخوته وإلى أخواته إذا أقبل الصيف بسفره إلى أوربا قريبا. وكان يغيظ أخواته بأنه سيقيم فى أوربا أعواما، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجا فرنسية متعلمة مثقفة تحيا حياة راقية ممتازة، ليست جاهلة مثلهن، ولا غافلة مثلهن، ولا غارقة فى الحياة الخشنة الغليظة مثلهن. وكان أخواته يتضاحكن حين يسمعن منه هذا الحديث، وربما أضحكن به أم الفتى وأباه.

وكان الفتى يقول لهن: "اضحكن اليوم فسترين غدا!"

وفى ذات يوم قرأ صاحبنا فى الصحف إعلانا من الجامعة تطلب فيه إلى الشباب أن يستبقوا إلى بعثتين من بعثاتها فى فرنسا. إحداهما لدرس التاريخ، والأخرى لدرس الجغرافيا. ولم يكد يفرغ من قراءة هذا الإعلان حتى استقر فى نفسه أنه صاحب إحدى هاتين البعثتين، وأنه سيعبر البحر إلى باريس لدرس التاريخ فى السوربون. وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد هذا الكتاب:

"دولتلو أفندم رئيس الجامعة المصرية

obeikandl.com

"أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة، أنى قرأت فى الصحف إعلان الجامعة، أنها سترسل طالبين إلى أوربا لدرس التاريخ وتقويم البلدان. وأنا شديد الحرص على أن أكون أحد هذين الطالبين، وعلى أن توجهنى الجامعة إلى فرنسا لدرس التاريخ. واعتقادى أن الجامعة إنما تجعل مقياسها فى اختيار الطلبة الكفاءة الحقيقية. وعلى ذلك أتشرف بأن أؤكد لدولتكم ولمجلس الإدارة أن الجامعة قد جعلتنى فيما أعتقد، كفئا لخدمتها بما علمتنى من علم نافع، وما أدبنى به من أدب مفيد.

"وأنا على يقين أن الجامعة ستستفيد منى كثيرا إن قبلتنى خادما لها÷ وهى لن تجنى منى إلا ثمر غرسها الطيب فى مصر وفى أوربا.

"نعم، إن الشروط التى تشترطها الجامعة فى طلبة الإرساليات ينقضى بعضها، فإنى لم أحصل على الشهادة الثانوية، كما أنى مكفوف البصر. ولكنى أعتقد أن نقصان هذين الشرطين لا يضرنى شيئا. فأما الشرط الأول فلا يضرنى نقصانه، لأن ما سمعته فى الجامعة من العلم وما أديته فيها من الامتحان، وما أحرزته من الدرجات العظمى فى جميع العلوم التى امتحنت فيها، وهى علوم الجامعة كلها

صورة ص ٤٩

إلا الآداب الأجنبية، وما تشرفت به فى إثر ذلك من رضا مجلس الإدارة عنى، وثناء الأساتذة غائبهم وحاضرهم على كل ذلك، يقوم مقام الشهادة الثانوية ويزيد عليها من غير شك ولا ريب، ولا سيما أنى شارع فى تعلم الفرنسية حتى إنى لأفهم بها غير قليل، وقد أتممت منها مقدارا يمكننى من دخول الجامعة فى فرنسا بعد أشهر أقضيها هناك، ويضاف إلى ذلك أنى أتممت فى الجامعة درس تاريخ الشرق القديم ونلت فيه الدرجة العظمى، ودرس تاريخ الإسلام، ونلت فيه أعظم درجة نالها طالب فى الجامعة ليس بينى وبين النهاية إلا درجة واحدة، وأتممت درس اللغات القديمة السامية ونلت فيها الدرجة العظمى أيضا، وتلك مزية لم تجتمع لأحد من الطلبة المصريين فى مصر. ولست أريد أن أتمدح بهذا، وإنما أريد أن أتحدث بفضل الجامعة علي، وأن هذا الفضل يجعلنى أكثر الناس كفاءة لدرس التاريخ وخدمة الجامعة فيه.

"أما الشرط الثانى وهو فقدان البصر فليس يمنعنى أن أسمع دروس الأساتذة ولا أن أؤديها، أى ليس يمنعنى أن أكون طالبا وأستاذا، وإذا كان قضاء الله قد قضى على هذه البلية فقد عوضنى منها خيرا. وأنا أجل المجلس عن أن يتخذ بلية كهذه عقبة تحول بينى وبين ما أريد من الخير لنفسى وللجامعة.

"حقا إن الجامعة إذا قبلت هذا الطلب فستضطر إلى أن تزيد فى نفقتى ما يمكننى من الاستعانة بمن يكون معى فى فرسنا، ولعمرى لئن فعلت ذلك، فليس بضائر لها، بل هو يدل على كرم نفس وعلى تضحية فى معونة من يحتاج إلى الإعانة والتعضيد.. على أنى مستعد لأن تسترد الجامعة منى بعد عودتى من أوروبا ما أنفقته على زيادة على النفقات العادية تأخذه من مرتبى أقساطا. وما أظن الجامعة تكره أن تتفضل على بهذا القرض الجميل.

"لذلك كله أرفع إلى دولتكم وغلى مجلس الإدارة هذا الطلب راجيا أن تتفضلوا بقبوله. ولكم الشكر الجميل والثناء المحمود.

طه حسين

طالب بالجامعة المصرية"

وعرض هذا الكتاب على مجلس الجامعة فلم يلق منه إلا الرفض، لأن صاحبه لا يحمل الشهادة الثانوية، بحكم آفته التى امتحن بها، ولأن إرساله إلى أوربا سيكلف الجامعة نفقات إضافية تعين الفتى على أن يكون له رفيق يعينه على الاختلاف إلى الجامعة وقراءة ما يحتاج إلى قراءته من الكتب. ولكن هذا الرفض لم يفل عزم الفتى ولم يثبط همته. وإذا هو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب الجديد:

"دولتلو أفندم رئيس الجامعة المصرية.

أرفع إلى دولتكم وإلى مجلس الإدارة أنى كنت قد طلبت إلى الجامعة الإذن لى فى أن أكون من إرساليتها فى أوربا. ورفض المجلس هذا الطلب فى جلسته الأخيرة لأنه يخالف قانون الإرسالية. وإنى لأعلم حق العلم قبل أن أرفع طلبى هذا إلى دولتكم وإلى المجلس أنه يخالف القانون. ولكنى طلبت الاستثناء ورغبت فيه لما بينت فى ذلك الطلب من رغبتى فى العلم وحرصى على خدمة الجامعة ولما اكتسبت بفضل الجامعة على من المزايا التى تؤهلنى لبلوغ هذه المنزلة؛ ولست أنكر على المجلس رفضه لهذا الطلب فإنه لم ينفذ إلا القانون، وما كان تنفيذ القانون بالأمر الذى ينكر أو يعاب، غير أنى أعيد هذا الطلب إلى المجلس راغبا فى أن يعيد النظر فيه، فإنه لم يرفض ذلك الطلب بالماضى إلا لأمرين مجتمعين أو كل منهما على حدة.

"الأول أنى لا أحمل الشهادة الثانوية لأنى مكفوف البصر، ولكن المجلس أجل عندى من أن يحسب لهذا الأمر حسابا، فإنه لا يمنعنى أن أكون طالبا وأستاذا بدليل أن المجلس نفسه يقبلنى طالبا منتسبا فى الجامعة أسمع دروسها وأجوز امتحاناتها وأنال شهادتها. وإذا كانت الطبيعة قد حالت بينى وبين كثير من نعيم الحياة، فما ينبغى أن تكون الجامعة عونا للطبيعة على حرمانى لذة الانتفاع بالعلم والنفع به، مع أنها تعلم أنى على ذلك أقدر ما أكون.

"الثانى احتياج الجامعة إذا أرسلتنى إلى أن تنفق علىّ أكثر من نفقتها العادية على طلابها فى أوربا. وأنا أعرف بأن للجامعة الحق فى تقدير هذا المانع المالى ومراعاته وأن لها ألا تشترى خدمتى بهذا الثمن الغالى لأنى لا أستحقه ولأنها لا تجده.

"ولذلك أتشرف بأن أرفع إلى المجلس من جديد أنى لا أطلب من النفقات إلا المقدار الذى يطلبه غيرى من الطلاب وعلى أن أقوم بما أحتاج إليه مما يزيد على هذا المقدار، فلعل ذلك كله يشرفنى بقبول المجلس طلبى هذا مقدرا حرصا على طلب العلم فى غير مصر مع ما أحتمله فى سبيل ذلك من الآلام والعناء، فإن هذا أدعى إلى قبول الطلب وتقريره مع الشكر الجميل والثناء الجزيل.

٥ مارس ١٩١٣ طه حسين"

وكأن المجلس قد ضاق بهذا الكتاب الجديد، فرفضه كما رفض الكتاب الأول، وسبب الرفض بأن الفتى لا يعرف اللغة الفرنسية حق معرفتها.

وأراد المجلس أن يهون هذا الرفض على الفتى، فصاغه فى صيغة التأجيل حتى يحسن هذه اللغة مطمئنا إلى أنه لن يجد إلى إحسانها سبيلا، تحول بينه وبين ذلك آفته تلك، ويعينها على ذلك فقر الفتى وإصفار يده من المال. فلم يزدد الفتى إلا عزيمة وتصميما، وكتب إلى رئيس الجامعة بعد شهور هذا الكتاب الثالث:

"صاحب السعادة رئيس الجامعة المصرية

أعود الآن فأرفع إلى سعادتكم وإلى مجلس إدارة الجامعة رغبتى فى السفر إلى أوربا لدرس العلوم الفلسفية أو التاريخية موفدا من قبل الجامعة، بعد أرفضت هذا الطلب فى السنة الماضية. فقرر مجلس الإدارة تأجيل سفرى إلى هذه السنة ريثما أقوى فى اللغة الفرنسية. وإذا كنت قد وصلت من هذه اللغة إلى مقدار لا بأس به، وسأتقدم فى هذه السنة لامتحان شهادة العالمية فى قسم الآداب، فأنا أرجو أن يتفضل مجلس الإدارة فيوفى لى وعده الكريم مع الشكر والثناء.

١٩ يناير سنة ١٩١٤ طه حسين"

واضطر مجلس الجامعة إلى نوع من التحدى فقرر النظر فى إيفاد الفتى إلى أوربا إذا ظفر بشهادة العالمية "الدكتوراه).

ولم يكن أحب إليه من هذا التحدى، فأقبل على العناية بالدرس وإعداد الرسالة للامتحان، وتقدم لهذا الامتحان، وظفر بإجازة الدكتوراه، ولهذا كله حديث يطول.

الفصل الثامن

ثلاث تجارب..

واتصلت أسباب الفتى بثلاثة من الصديق غير صاحبيه الزناتى والزيات. كان لكل واحد منهم أثر أى أثر فى حياته الجامعية. وكان لاثنين منهم أثر بعيد عميق فى حياته بعد أن جاوز طور الطلب وأصبح أستاذا ومؤلفا. عرف أحد هؤلاء الثلاثة فى الجامعة، كان يختلف مثله إلى دروسها، ولم يكن أزهرى النشأة، وإنما كان من فئة المطربشين. كان متوقد الذهن، نافذ الذكاء، قوى الذاكرة، محبا للدرس. وكان إلى ذلك حلو الروح، رقيق الصوت، ساحر الحديث. وقد ألفه الفتى فى دروس اللغات السامية، وبفضله استطاع أن يفرغ لهذه الدروس، ويحسن العناية بها، ويحفظ كثيرا من النصوص السريانية عن ظهر قلب. كان رفاقه الأزهريون ينفرون من هذه الدراسات ويكرهون أن يثقلوا على أنفسهم بها. وكان ذلك الصديق لها محبا وبها كلفا. فكان يلقى الفتى فى دروس الأستاذ ليتمان فيكتب عن الأستاذ كل ما كان يقول، وكان يخلو إلى صديقه بعد ذلك فيعيد معه الدرس والاستظهار. ولم ينس الفتى يوما احتفل فيه طلاب الجامعة بوداع أستاذهم ليتمان فى آخر العام بفندق من فنادق مصر الجديدة. وشهد هذا الاحتفال أساتذة الجامعة من المصريين والمستشرقين؛ وخطب الطلاب مثنين على أساتذتهم. فأكثروا، ثم قام هذا الصديق فأثنى على الأساتذة المستشرقين. وعلى الأستاذ ليتمان خاصة. ولكنه لم يخطب باللغة العربية ولا بلغة أوربية، وإنما ألقى كلمته باللغة السريانية، وتصور رضا الأساتذة الأجانب عنه وإعجابهم به واغتباط الأستاذ ليتمان بما أتيح له من نجح، وبأن تلميذا من تلاميذه المصريين قد استطاع أن يخطب بهذه اللغة القديمة التى لا تجرى بها الألسنة إلا فى بعض الكنائس وفى قاعات الجامعات بين الأساتذة والطلاب.

وقد رأى الفتى أستاذه ليتمان بعد ذلك مرات كثيرة فى مواطن مختلفة، فلم يحس عنده مثل هذه السعادة إلا فى موطنين اثنين: أحدهما فى ليدن بهولندا عندما سمع تلميذه الفتى يلقى بحثه فى مؤتمر المستشرقين، فلم يملك دموعه التى أخذت تفيض على وجهه بين الزملاء، والآخر فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عندما شارك تلميذه فى امتحان السيدة سهير القلماوى لدرجة الماجستير، وأعلن مفاخرا بعد فوزها بالدرجة أنه مغتبط سعيد، لأنه يشارك فى تخريج هذه الفتاة التى يعدها حفيدته، لأنها ابنة تلميذه ذاك الفتى. وما أكثر ما تحدث بعد ذلك بأنه جد فى علم له ابن وله حفدة.

أما الصديق الثانى فقد كان أزهريا مبغضا لدروس الأزهر، شديد النفور منها، قليل الإلمام بمجالس الشيوخ، غير حفى بالجامعة ولا مكترث لها ولا مختلف إليها، ولم يعرفه الفتى فى الأزهر ولا فى الجامعة، وإنما عرفه فى قهوة الكلوب المصرى قريبا من سيدنا الحسين. وكان غريب الأطوار، يضحك من نفسه، وربما أغرى الناس بالضحك منه.

كان من أهل القرن الثالث أو الرابع، وكان يعيش فى القرن الرابع عشر للهجرة. كان قليل الاحتفال بزيه وشكل وبزته، يهمل هذا كله إهمالا ظاهرا. ربما تكلفه ممعنا فى مخالفة الناس. وكان معنيا باللغة يجد فى إتقانها ويتتبع غريبها، فيحفظه ويحصى نوادره. وكان مع ذلك مشغوفا بالحياة الحديثة يأخذ منها طيباتها حين تتاح له، ويكره أن يتعمقها أو يعرف دقائقها، وحاول أن يتعلم الفرنسية فلم يحسن منها إلا تحية الصباح وتحية المساء وجملا قصارا، يلقيها بعض الناس إلى بعض حين يلتقون. ثم ضاق بها فأعرض عنها، واكتفى من الحياة الحديثة بما كان يصيب من طيباتها بين حين وحين.

وكان قد أقبل من أقصى الصعيد، واحتفظ بلهجته تلك فلم يكد يغير منها شيئا. وكان ربما أضفى هذه اللهجة على تلك الجمل الفرنسية التى كان يلقيها فيضحك منها ويضحك الناس.

وبفضل هذا الصديق استطاع الفتى أن يقرأ آثار أبى العلاء عندما حاول أن يضع رسالته لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة. كان يغدو عليه فى داره بدرب الجماميز إذا كان الضحى، فلا يفارقه إلا إذا أقبل الليل. وكان يقرأ له اللزوميات وسقط الزند وما شاء مما حفظ عن أبى العلاء. كان يقرؤه متغنيا به غناء عذبا. وكان الفتى يسمع منه ويحفظ عنه، ويطرب لإنشاده وغنائه، ومازال كلما قرئ عليه شعر أبى العلاء لم يسمع صوت قارئه، وإنما يسمع صوت صديقه ذاك مترنما بهذا الشعر فى صوته ذاك العذب الذى كان يضطرب بين الخشونة واللين.

ولم يذكر الفتى كم مرة قرأ شعر أبى العلاء ونثره مع صديقه ذاك، ولكنه عرف أنه قرأه مرات كثيرة وتأثر به أعمق التأثر، وآمن به أشد الإيمان، واستيقن أن حياة أبى العلاء تلك هى الحياة التى يجب عليه أن يحياها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ورأى الفتى نفسه ذات يوم مستعدا لإملاء رسالته، فتجرد صديقه ذاك للكتابة، وجعل الفتى يملي، والصديق يكتب، فإذا احتاج إلى الاستشهاد بشعر أبى العلاء أو نثره أو بما شاء الله أن يستشهد به من كلام القدماء بحث الصديق له عن هذه النصوص وأثبتها فى مواضعها من الرسالة. وفى أشهر قليلة تم الإملاء وتمت الكتابة، وقرأ الصديق على صاحبه رسالته

obeikandi.com

متغنيا بنثرها وشعرها، كما كان يتغنى بنثر أبى العلاء وشعره، واطمأن الفتى إلى رسالته، وأزمع أن يقدمها إلى الجامعة. ولكن كيف السبيل

إلى تقديمها وليس عنده منها إلى هذه النسخة التى كتبها الصديق وعليه أن يقدم منها نسخا خمسا؟

وهنا يظهر الصديق الثالث فيحمل عن الفتى ثقل هذا العناء. وكان هذا الصديق الثالث أزهرى النشأة أيضا. ولكنه كان من طراز آخر مخالف كل المخالفة لمن عرف الفتى فى الأزهر والجامعة من الرفاق. كان حسن الصورة، وسيم المنظر، رائق الشكل، معنيا بزيه أشد العناية، يتكلف فيه الأناقة وينسق بين ألوانه تنسيقا. وكان شديد عذوبة الصوت، ممعنا فى خفة الروح، ظريفا لبقا مترفا إلى حد ما. كان أبوه شيخا كريما ميسرا عليه فى الرزق، مبسوط اليد فى الإنفاق على ابنه ذاك، ولكنه كان على ذلك معتدلا محافظا على التقاليد. وكان ابنه طموحا إلى مزيد من نعيم الحياة، وما أباح الله من طيباتها. فلم يكفهما كان أبوه يعطيه من المال، فسعى حتى أصبح مدرسا فى كلية الفرير، ليضيف نفقة إلى نفقة، وليحسن العناية بنفسه وزينته. وكان أبوه يرى ذلك فلا يصده عنه، وإنما ينظر إليه مبتسما مشجعا، يرى أن خير ما يصنع الشباب إنما هو الجد والعمل والاعتماد على النفس وكسب المال، ما وجدوا إلى كسبه سبيلا. وكان الفتى ورفاقه ينظرون إلى هذا الصديق فى شيء من الإعجاب به والرثاء له يعجبون به لثرائه ظروفه، ويرثون له لأنه لم يكن يحب الدرس، ولم يكن يتعمق لونا من ألوان العلم. وإنما كان يلم بهذا كله إلماما. يختلف إلى دروس الأزهر ليسخر من الشيوخ والطلاب، ويختلف إلى دروس الجامعة ليلقى أترابه وليتحدث عن الجامعة بين زملائه من المصريين والفرنسيين فى كلية الفرير. وكان يضحك من كل شيء، ومن كل إنسان، ويتندر بكل شيء وبكل إنسان، ويرى الحياة فكاهة حلوة يجب أن يأخذ الإنسان منها خير ما فيها.

كان فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، وحدثته نفسه بأن ليس له من الزواج بد، فلما كلم أسرته فى ذلك سخرت منه وهزئت به. وقال له أبوه فى دعة ورضا: مازال بينك وبين الزواج وقت طويل وعمل ثقيل.

ولكن الفتى صمم على الزواج، وأزمع أن يكره أهله على أن يزوجوه. وكان له ما أراد، لأنه اصطنع الجنون إذا دخل داره. فكان عاقلا بين رفاقه فى الأزهر والجامعة، وكان مجنونا إذا أغلق الباب من دونه فى منزله ذاك عند سيدنا الحسين. كان لا يكاد يدخل الدار حتى يؤذن أهله بمقدمه رافعا صوته ما استطاع بهذه الكلمة التى كانت تخيفهم كل الخوف: "جنان"، ثم يأخذ فى تحطيم ما يستطيع تحطيمه، وفى إفساد نظام الدار حتى يضطر أهله إلى اصطناع شيء من

القوة لرده إلى بعض الهدوء. وما زال يعقل بين رفاقه ويجن بين أهله حتى أصبح زوجا، وحتى رزق الولد، قبل أن يبلغ العشرين.

وأقبل ذات يوم على رفاقه متحديا أيهم يستطيع أن يؤرخ له بالشعر مولد الصبية التى ولدت له صباح ذلك اليوم. فلما لم يجد عند رفاقه شيئا أنشدهم شعره الذى ختمه بتاريخ مولد تلك الصبية. ثم دعاهم إلى غداء أعده لهم، فأطعمهم فى نفسه منذ ذلك اليوم. وكانوا كلما أرادوا أن يدعوهم إلى غداء أو عشاء تملقوه بالشعر، يجدون قليلا ويعبثون فى أكثر الأحيان، ويستجيب لهم هو دائما.

وأقبل ذات يوم لا يملك نفسه من الإغراق فى الضحك حتى ظن به أصحابه الجنون. وحدثهم بعد أن أفاق بأن الذين رأوه بين داره وبين الأزهر ظنوا به الجنون أيضا. وكان مصدر إغراقه فى الضحك أنه اجتمعت له طائفة حسنة من الجنيهات، فاشترى لنفسه خاتما له فص من ألماس نفيس، ورأى أبوه هذا الخاتم، فلما سأله عن ثمنه أنبأه بأنه اشتراه بأربعين جنيها. فقال الشيخ ساخرا: لقد فسد الزمان! ما رأيت قبل اليوم قط فتى يحمل فى أصبعه أربعين إردبا من القمح.

وجعل الفتى يتصور هذا المقدار الضخم من القمح وقد كدس بعضه على بعض، وأقبل هو فحمله بإصبع واحدة. وكانت هذه الصورة هى التى أغرته بالضحك، ودفعته إليه حتى عرضته لتهمة الجنون.

لقى هذا الصديق صاحبه الفتى ذات مساء فى قهوة الكلوب المصرى. وكان الفتى ذاهلا يفكر فى رسالته كيف يقدمها إلى الجامعة وليس عنده منها إلا النسخة التى أملاها. وهو لا يعرف كيف يكتب النسخ الأربع الأخرى، فلما عرف صديقه منه ذلك قال له متضاحكا: "هون عليك.. فلن تنقضى أيام حتى تقدم رسالتك إلى الجامعة". ثم أصبح فاشترى أداة من أدوات الطبع على البلوظة، واستأجر ناسخا كتب الرسالة بالحبر الذى يلائم تلك الأداة، وأعد من الرسالة نسخا قدمت إلى الجامعة. وأصبح الفتى أول طالب مصرى يرشح نفسه فى الجامعة المصرية للظفر بدرجة الدكتوراه.

وأقبلت بشائر الصيف، وحدد اليوم الذى تناقش فيه رسالة الفتى. وأقبل الفتية الأزهريون فى مساء ذلك اليوم على الجامعة يحيطون بصديقهم مشجعين له. يحيون فى نفسه الأمل ويزينون فى المستقبل الذى ينتظره، إلا ذاك الصديق الذى طبع له الرسالة. فقد كان يتحدث إليه حديث المنذر المحذر، لا حديث المشجع المؤمل. ينذره بقسوة الممتحنين، ويحذره من أن

يكون له فى الجامعة يوم كيومه فى الأزهر، ويؤكد له أنه ليس مستعدا لأن يقدم له بعد رسوبه فى الامتحان الثانى صينية المكارونة تلك التى قدمها إليه بعد رسوبه فى الأزهر.

ولكن الفتى لم يرسب فى هذه المرة، وإنما ثبت لأساتذته الذين جادلوه وألحوا عليه فى الجدال، وظفر منهم بعد لأى بدرجة الدكتوراه.

وسجلت الجامعة هذا الامتحان ونجاح الفتى فيه بهذا المحضر:

"فى الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء خامس مايو سنة ١٩١٤ اجتمعت بدار الجامعة لجنة امتحان العالمية المؤلفة من الأستاذ محمد الخضرى رئيسا والأستاذين محمد المهدى ومحمود فهمى المدرسين بالجامعة والأستاذين إسماعيل رأفت بك وعلام سلامة المندوبين من نظارة المعارف العمومية أعضاء لامتحان... الطالب بالجامعة المصرية وكان اجتماعها بهيئة علنية.

ناقشت الطالب فى رسالته التى قدمها فى تاريخ أبى العلاء المعري، ثم فى العلمين اللذين اختارهما وهما الجغرافيا عند العرب والروح الدينية للخوارج، واستمرت المناقشة ساعتين وسبع دقائق. وبعد نهاية الاختبار اجتمعت للمداولة فيما يستحقه الطالب من الدرجات فقررت أنه يستحق:

(أ) درجة جيد جدا فى الرسالة.

(ب) درجة فائق فى الجغرافيا عند العرب.

(ح) درجة فائق فى الروح الدينية عند الخوارج.

وفى منتصف الساعة الثامنة أعلنت هذه النتيجة للجمهور وسط قاعة الامتحان

رئيس لجنة الامتحان

محمد الخضرى"

٥ مايو سنة ١٩١٤

وتلقت الجماعة الضخمة التى كانت تضيق بها القاعة هذا الإعلان بالتصفيق الشديد الملح. ثم وقف علوى باشا. رحمه الله. فأعلن أنه تبرع بجائزة قدرها عشرون جنيها لأول طالب تخرج فى الجامعة المصرية. فاتصل التصفيق. ثم تفرق الجمع، وانصرف الفتى مع رفاقه فأنفقوا ساعات فى بيت الزيات لم يتحدثوا فيها إلا بأمر الرسالة والامتحان وما أتيح لصديقهم من فوز.

ولم ينم الفتى من ليلته تلك.. حال الابتهاج بينه وبين النوم، وهو يعلم أنه ما أحس السعادة قط كما أحسها فى ذلك اليوم وفيما تلاه من الأيام، لا لأنه ظفر بهذه الدرجة الجامعية، ولا لأنه كان أول ظافر بها، ولا لهذه الاحتفالات التى أقيمت له. ولا لكثرة ما تحدثت الصحف عنه وعن فوزه، ولا للعشرين جنيها التى أجازه بها علو باشا، والتى كانت تزيد على مرتب أبيه عن شهر كامل ملؤه الجد والكد والعناء، بل لشيء آخر بعيد عن هذا أشد البعد، قريب منه أشد القرب. وهو أنه قد قبل تحدى الجامعة وظفر بدرجة الدكتوراة، وأصبح سفره إلى فرنسا دينا له على الجامعة ليس لها بد من أن تؤديه إليه.

وكانت حياته فى الأشهر التى أنفقها فى مصر قبل أن يعبر البحر حلما حلوا.متصلا، ولكنها على ذلك لم تخل من أيام شداد.

الفصل التاسع

الفلسفة المفسدة!

ولم تمض أيام بعد فوز صاحبنا فى الامتحان، حتى دعته الجامعة، وأنبأته بأنه سيشرف بالمثول بين يدى الحضرية العلية الخديوية، من غد، إذا كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، وسيقدمه إلى الجناب العالى، حضرة صاحب السعادة أحمد شفيق باشا الذى سيسافر إلى الإسكندرية فى نفس الموعد وفى نفس القطار.

وجم الفتى لهذا النبأ وجوما معقدا حقا، كان فيه السرور والغرور، وكان فيه الخوف والفرق، وكانت فيه حيرة أى حيرة... فليس قليلا على ذلك الفتى الأزهرى الفقير الضرير أن يرقى فى هذه السرعة إلى حيث يلقى صاحب العرش، وأين هو من صاحب العرش؟.. وأين صاحب العرش منه؟!..

وكيف السبيل إلى الإسكندرية ومع من يسافر؟! وغلامه ذاك الأسود لا يحسن أن يصاحبه فى شوارع القاهرة إلا فى كثير من الجهد والعناء، فكيف بمصاحبته إلى هذه المدينة البعيدة الغريبة التى تقوم على ساحل البحر فى أقصى الأرض؟ وكيف يصاحبه إلى القصر، وكيف يكون دخوله على الأمير؟..

ثم فى أى هيئة يدخل على الأمير؟!.. أفى ثيابه تلك الرثة التى لم يكن يرضى عنها ولا يطمئن إليها ولا يظهر فيها لنظرائه إلا فى شىء من الكره والحياء!.. أم فى ثاب أخرى تليق بلقاء الأمير، ومن له بهذه الثياب؟.. وماذا يصنع بعد أن يخرج من القصر؟ وأين يقضى ليلته فى هذه المدينة الغريبة؟.. ومن له بما تحتاج إليه هذه الرحلة من النفقات؟ وهو لا يملك إلا قروشا لا تتجاوز العشرة، ولا سبيل له أن يطلب إلى أخيه شيئا، فلم يعرف أخوه قط كيف يكون عنده أكثر من جنيه ينفق منه حتى إذا أتى عليه تكلف الاقتراض من صديقه هذا أو ذاك، حتى يكون أول الشهر..

ازدحمت هذه الخواطر على الفتى فشغلته عن أن يرجع الجواب على سكرتير الجامعة، حين ألقى إليه هذا النبأ السعيد.. وكأن السكرتير قد أحس شيئا من حيرته فقال له متلفطا: وسيكون سفرك إلى الإسكندرية ورجوعك منها على نفقة الجامعة..

فابتسم الفتى فى مرارة، ولم يزد على أن شكر ثم انصرف.

ورآه مساء ذلك اليوم راضيا مغتبطا فى الكلوب المصري، يضحك ملء شدقيه. فقد لقى صديقه ذلك الموسر الذى كان يحمل فى أصبعه أربعين إردبا من القمح، لقيه ولم يطلب إليه شيئا، وإنما أنبأه مسافر من الغد فى صحبة شفيق باشا للتشرف بلقاء الأمير. قال الصديق مبتهجا: فسأكون رفيقك فى هذه الرحلة.. وستريح غلامك هذا الذى أثقلت عليه فى هذه الأيام.

ثم سكت لحظة كأنه كان يفكر فى شىء.. وأحس الفتى . وإن لم ير . أن صديقه كان ينظر إليه نظرة فاحصة.. ثم انقطع الصمت، وقال الصديق: ألم يعلن علوى باشا أنه قد أجازك بعشرين جنيها؟

قال الفتى: بلى.

قال الصديق: فهلم معي، فليس لك بد من ثوب تلقى فيه الأمير.

قال الفتى: وأى ثوب؟

قال الصديق: اصحبنى ولا عليك.

ثم مضى معه إلى حيث اشترى له معطفا من هذه المعاطف التى كان الأزهريون يسمونها الكاكولا، ولم يكد الفتى يدخل فيها ويجمع طرفيها على صدره بأزراره تلك حتى أحس كأن شخصه قد تغير، وكأنه قد خرج من طور من أطوار حياته، ودخل فى طور جديد.

ولم يرد الفتى أن يبرح القاهرة دون أن يلقى أستاذه لطفى السيد، فسعى إليه حين ارتفع الضحى من الغد، وتلقاه الأستاذ حفيا به، فضمه إليه وقبله، وقال: امض مصاحبا، واذكر أنك فى أول الطريق.

ورأى الفتى نفسه فى قطار الإسكندرية، وفى الدرجة الأولى التى لم يعرفها قبل ذلك اليوم. ورأى نفسه بين صديقه ذاك وبين شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي، وهم يأخذون فى أطراف من الحديث، والباشا يقص عليهما فنونا من حياته حين كان طالبا يختلف إلى دروس العلوم السياسية فى باريس أو فى لوزان. والفتى يسمع ويرى نفسه مختلفا بعد وقت يقصر أو يطول إلى دروسه فى السوربون، وتعرض له فى باريس خطوب لا تشبه الخطوب التى عرضت له حين كان يختلف إلى دروسه فى الأزهر أو فى الجامعة.

فإذا بلغ القطار مدينة الإسكندرية ذهب الفتى وصاحباه، إلى القصر فى عربة فخمة كانت تنتظر الباشا فى المحطة، والفتى ينكر نفسه، وينكر هذا الترف الذى لا عهد له به، وهو فى الوقت نفسه حائر ذاهل يفكر فيما سيسمع من الأمير وفيما سيقول له.

وقد أدخل على الأمير. فإذا هو يلقى رجلا كغيره من الرجال الممتازين الذين كان يلقاهم فى الجامعة من أعضاء مجلسها، وإذا هذا الرجل يلقاه فى سماحة سمحة بريئة من التكلف، وإذا هو يأخذ بيده فيجلسه على أريكة ويجلس عليها إلى جانبه، مهنئا له بفوزه، متمنيا له الخير والنجح فيما يستقبل من الأيام.

سائلا إياه بعد ذلك عما يريد أن يصنع بعد أن ظفر بدرجته تلك

قال الفتى: سأحاول السفر إلى فرنسا لأدرس الفلسفة أو التاريخ.

قال الأمير: إياك والفلسفة... فإنها تفسد العقول!..

وكان الإنكار قد ظهر على وجه الفتى، فمضى الأمير قائلا: بل هى لا تفسد العقول وحدها، ولكنها تفسد الذوق أيضا.. لقد ذهبت إلى باريس منذ سنين، واستقبلنى الطلاب المصريون هناك، وكانوا جميعا حاسرى الرءوس فى أيديهم قلانسهم إلا واحدا منهم كان حاسر الرأس كزملائه ولكنه لم يكن يمسك قلنسوة وإنما كان يمسك طربوشا فى يده.. فلما سألت عن هذا الفتى أنبئت بأنه منصور فهمى، وبأنه يدرس الفلسفة. فعلمت أن الفلسفة قد أفسدت عليه عقله وذوقه جميعا. فصاحب الطربوش لا يرفعه عن رأسه ولا يأخذه بيده حين يلقى الخديو، وصاحب القلنسوة لا يتركها على رأسه وإنما يأخذها بيده فى مثل هذا المقام، ولكن صاحبنا كان يدرس الفلسفة!

ثم أغرق فى ضحك متصل، والفتى مغرق فى الوجوم...

فلما سكت عنه الضحك، قال وهو يضع يده على ركبة الفتى: ستسافر إلى فرنسا، ولكن لا تدرس الفلسفة عليك بالتاريخ فإنه علم عظيم...

ثم أعرض عن الفتى وأخذ يتحدث إلى شفيق باشا فى رطانة تركية لم يفهم منها الفتى قليلا ولا كثيرا. ووقف بعد دقائق، فوقف الفتى وصحبه شفيق باشا إلى خارج الغرفة حيث كان ينتظره صديقه ذاك..

فودعه شفيق باشا وأسلمه إلى صاحبه وعاد هو إلى الأمير.

وانسل الصديقان من القصر، لا يحفل بهما أحد ولا يلتفت إليهما أحد. وخرجا من القصر فلم يجدا عربة تنتظرهما، وإنما مضيا أمامهما يقص الفتى على صديقه حديث الأمير إليه، والصديق يضحك. ثم يقول: هلم إلى مكتب التلغراف لننبئ الجامعة بانتهاء المقابلة. ثم نخلص لأنفسنا.

قال الفتى: سننبئ الجامعة غدا حين نعود.

قال الصديق: اسكت يا أحمق، فإن هذه البرقية ستكون أعظم خطرا وأبعد أثرا من المقابلة نفسها، سيقرؤها أعضاء مجلس الإدارة، وستقضى على ترددهم فى إرسالك إلى فرنسا.

وذهبا إلى مكتب التلغراف، وكتب الصديق إلى الجامعة هذه البرقية، لم يؤامر فيها الفتى، وإنما قرأها عليه بعد أن انصرفا من المكتب:

"حضرة سكرتير الجامعة المصرية بالقاهرة

لبثنا فى حضرة الجناب العالى ربع ساعة لقينا فيه من لطف المليك وعطفه على الجامعة وعلينا ما أطلق ألسنتنا بالحمد له والثناء عليه.

طه حسين"

وأنفق الصديقان ساعات حلوة فى الإسكندرية، يهيمان على ساحل البحر، ويأخذان فى ألوان الحديث فيها قليل من جد وكثير من العبث. واستكشف الفتى فى صديقه خصلة لم يكن يعرفها منه، وهى الإسراف على نفسه فى الأكل. فلم يكن يلقى شيئا يؤكل مما يحمله الباعة المتجولون إلا اشترى منه وأقبل عليه يزدرده ازدرادا، والغريب أنه أقبل على عشائه كأنه لم يأكل قبله شيئا. ثم قضيا ليلتهما فى فندق تيمن الصديق باسمه، وقال لصاحبه: فأل حسن! ستسافر إلى فرنسا لأن الفندق يتسمى باسمها، وينسب إليها...

ولم يبلغ الفتيان مدينة القاهرة، حتى قال الصديق لصاحبه: إذا أدى إليك علوى باشا جائزته فاذكر أنك مدين لى بستة جنيهات، واحذر أن تبطئ فى أدائها إلى!

وكان قبض هذه الجائزة أثقل على الفتى من لقائه للأمير. فقد دعى إلى العشاء على مائدة علوى باشا، مع أساتذته الذين امتحنوه. فجلس إلى المائدة، ولكنه لم يصب من الألوان التى قدمت إليه شيئا. كان شديد الحياء بطبعه، وكانت المهابة تملك نفسه وتفسد عليه أمره كله. وكان لا يدرى ماذا يصنع بشخصه كله وقد وضعت أمامه أدوات المائدة فلم يكد يمسها حتى أدركه منها ذعر شديد.. ماذا يصنع بالملعقة، وماذا يصنع بالشوكة والسكين! وكيف يتصرف بها... ألى الخير كل الخير فى أن يلبث فى مكانه هادئا ساكنا لا يعرض نفسه لسخرية أو إشفاق؟..

وظل فى مكانه هادئا ساكنا أيضا لا يحرك يدا ولا لسانا.

وأقبل الأساتذة على طعامهم غير هيابين ولا وجلين ولا مترددين ولا حافلين بهذا الفتى الجالس بينهم كأنه التمثال! قد انعطف أعلاه على أسفله. وهو مغرق فى السكوت والصمت لا يصنع شيئا ولا يقول شيئا. كان يستحى أن يحرك يده أو لسانه. وكان يستخذى من سكونه

وصمته. وكان يتعجل مر الساعات ويتمنى أن تعود إليه حريته حين يرد إليه غلامه ذاك الأسود الذى كان ينتظره غير بعيد.

وكان علوى باشا وحده يلح عليه فى أن يصيب من هذا اللون أو ذاك. فلما استيأس منه، قال فى صوت حزين: أرجو أن يكون خادمك قد أعد لك ما يعشيك.

وقد فرغ القوم من طعامهم، وأخذوا فى أطراف من الحديث، وشاركهم الفتى فى بعضها، ثم قام الباشا فأدار مفتاحا فى خزانة وجذب إليه درجا من أدراجها ثم أعاد إغلاقها، ثم أقبل على الفتى فدس فى يده ورقة تصبب جبينه لها عرقا. فلما أصبح عرف أنها كانت الشيك الذى دعى إلى العشاء ليتسلمه.

وأدى الفتى دينه، وأجاز خدم الجامعة كما أجازه علوى باشا، وبقى له جنيهات تسعة سطا عليه أخوه فلم يبق له منها شيئا!!

على أن هذا كله لم ينس الفتى حقه عند الجامعة، فهى قد علقت سفره على أن يفوز بالدرجة. وقد فاز بها، فيجب أن تبر الجامعة بوعدها، والفتى يكتب إليها هذا الكتاب:

"صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

قد عرضت منذ حين على الجامعة المصرية أن توفدنى إلى أوربا لأدرس فيها التاريخ والفلسفة. فكلفتنى تعلم الفرنسية. ثم قبلت الطلب وعلقت تنفيذه بنيلى شهادة العالمية. وإذا كنت قد فرغت من هذا كله بحمد الله فلم يبق إلا أن يحدد مجلس الإدارة موعد السفر وتكتب الجامعة بذلك لأعد له عدته.

لذلك رفعت إلى عطوفتكم هذا الطلب راجيا أن تتفضلوا بقبوله ولكم الشكر أفندم.

١٨ مايو ١٩١٤ طه حسين"

وبدأت الجامعة البر بوعدها، فقررت ضم الفتى إلى بعثتها بباريس وأرسلت إليه هذا الكتاب:

"حضرة المحترم الدكتور

اطلع مجلس الإدارة على العريضة المقدمة من حضرتكم بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩١٤ فقرر انضمامكم إلى إرسالية الجامعة بباريس لدراسة التاريخ. وأن يكون سفركم فى الأسبوع الأول من شهر أغسطس القادم.

وهذا إخطار لحضرتكم بذلك. واقبلوا وافر تحياتى.

رئيس الجامعة المصرية"

وكذلك تحقق هذا الحلم السعيد الذى داعب نفس الفتى وداعبته نفسه أعواما، وأصبح صاحبنا عضوا فى بعثة الجامعة، وتقرر أن يعبر البحر على الباخرة لوكس فى الثامن من شهر أغسطس، وسافر الفتى إلى أقصى الصعيد حيث كانت تقيم أسرته ليودع أبويه، فأقام فى أسرته أسابيع كانت تثير فى نفسه كثيرا من الشجون. فقد كان يرى أباه مبتهجا أشد الابتهاج بسفر ابنه إلى أوربا بعد أن ابتهج أشد الابتهاج كذلك بفوز ابنه بدرجته الجامعية.

كان يتحدث بذلك إلى أهله، وكان يتحدث به إلى الناس، وكان كثيرا ما يقول لأولئك وهؤلاء: لله فى خلقه شئون! هذا أضعف بنى وأخفهم على حملا وأقلهم نفقة. قد أتيح له ما لم يتح لإخوته الأقوياء المبصرين الذين كلفونى من النفقة ما أطيق وما لا أطيق، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم، ولم يقابل الخديو واحد منهم، ولم يخطر لى ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوربا كما سافر إليها أبناء الأغنياء. وكان قصارى ما تمنيت لابنى هذا أن يجلس إلى عمود فى الأزهر ليلقى الدروس على بعض طلابه. فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التى نسمع من أحاديثها الأعاجيب!

وكانت أم الفتى راضية عما أتيح لابنها من النجح، ولكن رضاها كان مرا ثقيلا. كانت تفكر فى حال ابنها وفيما سيعرض له من الخطوب فى بلاد الغربة وفيما سيتكلف من الجهد ويحتمل من المشقة، وكانت كلما رأت ابتهاجه وابتهاج أبيه ثقل عليها هذا التفكير، وربما استخفت بدموعها حتى لا تنغص على الأسرة هذا الابتهاج.

وأقبل الفتى ذات يوم إلى القاهرة يتهيأ للسفر البعيد، ولكنه لا يكاد يأخذ فى ذلك حتى ينقلب فرحه حزنا وسروره ألما ولوعة. فقد أعلنت الحرب، واستردت الجامعة طلابها من أوربا، ووقفت إرسال البعثة الجديدة واضطر الفتى إلى أن ينتظر... ماذا ينتظر؟ وإلى متى يكون هذا الانتظار: أيقصر أم يطول؟..

الفصل العاشر

أستاذ جامعى بخمسة جنيهات!

... وكانت تلك الأيام الطوال الثقال التى قضاها صاحبنا فى القاهرة مروعا ملتاعا بعد أن حالت خطوب الحرب بينه وبين ما كان يريد. فقد أسلمته هذه الصدمة القاسية إلى هم متصل ذاد عنه النوم، فلم يكن يذوقه إلا حين يسفر الصبح ويستيقظ الطير، وقد بلغ منه الجهد غايته، وانتهى به العناء إلى أقصاه، بعد ليل مسهد وفكر مشرد ونفس قلقة عرفت كيف تنسل من ماضيها الثقيل، ووقفت أمام المستقبل المظلم حائرة لا تعرف كيف تنفذ منه إلى ما كتب لها فى من سعادة أو شقاء.

فى تلك الأيام كان الفتى فارغ النفس والقلب، ليست أمامه غاية يسعى إليها، ولا أرب يطمع فيه. يصبح فلا يجد أمامه عملا ينفق فيه بياض النهار، ويمسى وقد ثقلت عليه الراحة. فلا يحس من التعب والجهد ما يغريه بالنوم أو يغرى به النوم، يرى نفسه بعد أن جاوز العشرين لا يزال عيالا على أبيه الذى أثقلته نفقة البنين، وعلى أخيه الذى جعل يعمل فى الجمعية الخيرية الإسلامية منتظرا ذلك المنصب الذى جد وكد فى سبيله، وهو منصب القضاء الشرعي. فى تلك الأيام أبغض صاحبنا نفسه، ومل حياته، وزاده درسه أبى العلاء بغضا لنفسه، وتبرما بحياته وإغراقا فى التشاؤم المظلم الذى لا قرار له. ورأى نفسه ذات يوم وقد انتهى به التشاؤم والضيق إلى حيث ندم على ما فرط فى جنب الأزهر وشيوخه حتى حيل بينه درجة العالمية تلك التى كان يسخر منها أشد السخر، ويزهد فيها أعظم الزهد، بعد أن صرفت عنه فلم يحاول أن يستأنف السعى إليها.

وما أكثر ما كان يردد فى نفسه ذلك الحديث المر: "لو قد ظفرت بتلك الدرجة لكان لى عمل أغدو إليه، ومورد أعيش منه، ولما أثقلت بهذه الحياة البغيضة على قوم من حقهم أن توضع عنهم الأثقال، وتخف عليهم الأعباء".

والغريب أنه كان يخترع لنفسه هذه الحياة المرة البغيضة اختراعا. فهو لم يشعر من أبيه ولا من أخيه ببعض ما كان يجد فى نفسه من الحزن والضيق واليأس، ولم يلاحظ أن أحدهما ضاق من عنايته به أو رعايته له. وإنما جرت الصلة بينه وبين أسرته مطردةكما كانت تجرى من قبل لم يتغير فيها شىء، ولم ينب به مكانه فى بيته ذاك ولا مكانه فى القاهرة بين صديقه، وإنما هو الذى كان يضيق باطراد الصلة وامتداد حياته على هذا النحو بدون أن يتغير قليلا أو كثيرا.

فيم إذن كد وشقى وتكلف ما تكلف من الدرس والامتحان، وظفر بما ظفر به من النجح؟ وفيم كثر الحديث عنه والاحتفاء به؟ وفيم كانت هذه الأحلام الحلوة والآمال العراض؟ أكان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التى يحياها وإلى أن يصبح آخر الأمر كلا على أسرته أينما توجهه لا يأت بخير؟

بهذا كله كان يناجى نفسه إن أتيحت له الخلوة فى النهار، وحين تفرض عليه الخلوة إليها فى الليل. وهو على ذلك لا يظهر لأحد شيئا من ضيقه وتبرمه ويأسه، وإنما يلقى الناس كما تعود أن يلقاهم باسما لهم وللحياة، آخذا معهم فى أطراف من الحديث مختلفة، كأنه لم يكن يائسا ولا شقيا ولا محزونا.

ثم يخطر له ذات يوم خاطر يخرجه من الملل واليأس، ويدفعه لا إلى الأمل بل إلى محاولة الأمل. فما الذى يمنعه أن يعلم فى الجامعة بعد أن تعلم فيها؟ وأن يختلف إليها أستاذا بعد أن اختلف إليها طالبا؟ وأن يكون شأنه معها كشأنه مع الأزهر لو ظفر بدرجته، وهو لا يريد من الجامعة أجرا، فما ينبغى أن يكون عيالا عليها. وليست هى بالغنية ولا بالمحتاجة إليه، وإنما يريد أن يشغل نفسه عن نفسه، وأن يشعر الناس أنه يستطيع أن ينفع نفسه وينفعهم، وأن وجوده فى هذه الدنيا ليس عبثا ولا لغوا. وهو يكتب إلى رئيس الجامعة هذا الكتاب:

"صاحب العطوفة رئيس الجامعة المصرية

"كانت هذه الحرب الحاضرة مؤخرا لى عن السفر إلى باريس والالتحاق بطلبة إرسالية الجامعة، كما قرر مجلس الإدارة، وإذ كنت خريج الجامعة، وقد استفدت منها وتخصصت لها، وأنا مضطر إلى أن أبقى بمصر ريثما تنتهى هذه الحرب، فقد أردت أن أمضى هذه السنة فى تدريس تاريخ الآداب العربية فى الجامعة بغير أجر. وأعتقد أنى قادر بمعونة الله وقديم فضل الجامعة على أن أفيد الطلاب ونفسى بهذا الدرس فائدة حسنة،وأبعث فى الآداب وتاريخها شيئا من الحياة غير قليل، فإذا راق هذا الاقتراح لمجلس الإدارة فأنا أرجو أن يتفضل فيقررنى (كذا) مدرسا لهذه المادة فى الجامعة ريثما تنتهى الحرب، وله الشكر الجميل".

وعرض هذا الكتاب المغرور على مجلس الجامعة فى السادس عشر من سبتمبر من ذلك العام، فقبل الطلب ورفض ما عرض صاحبه من المجانية، وكلف علو باشا، رحمه الله، شيئين: أحدهما أن يشكر للفتى تبرعه بهذا لدرس. والثانى أن يقدر له مكافأة تلائم حاله وتلائم طاقة الجامعة.

وأخذ علوى باشا يساوم الفتى فى هذه المكافأة، فعرض عليه أول ما عرض أن تكون مكافأته بمقدار ما يكون من إقبال الطلاب على درسه، وأن تفرض الجامعة على الذين يختلفون

إلى هذا الدرس رسما يسيرا، ثم يجمع ما يحصل من هذه الرسوم ويدفع إلى الأستاذ الفتى. وزعم علوى باشا لصاحبنا أن بعض الجامعات الألمانية تسير هذه السيرة مع الأساتذة المبتدئين، ولكن صاحبنا اعتذر من قبول هذا العرض لأنه يجعله مدينا لطلابه دينا مباشرا بما يرزق من مرتب آخر الشهر.

قال علوى باشا: وإذن فستعطيك الجامعة مكافأة قدرها خمسة جنيهات فى كل شهر، وهى أكثر مما كان الأزهر يعطيك لو جلست فيه مجلس الأستاذ.

واستخذى الفتى من هذا الحديث كله فلم يرجع على علوى باشا جوابا، وإنما انصرف عنه محزون القلب كئيب النفس كاسف البال، راضيا مع ذلك شيئا من رضا، فقد أصبح له عمل ينفق فيه وقته وجهده. وليس بقليل أن يقال عنه إنه أستاذ فى الجامعة. وأقبل على الأدب وتاريخه يعد دروسه فيهما. وقرر أن يختار للدرس فى عامه الأول تاريخ الأدب الأندلسى. وما هى إلا أن غرق فى "نفح الطيب" وما إليه من كتب الأدب العربى فى الأندلس، فنس نفسه ونسى الناس، ولكنه لم ينس البعثة إلى باريس، ولم ينس الحرب التى تحول بينه وبين باريس. وكيف السبيل إلى نسيان الحرب وأنباؤها المروعة تصبحه وتمسيه فى كل يوم؟

وإنه لغارق فى الأدب الأندلسى يقرؤه مع صديقه ذاك الذى قرأه معه أبا العلاء، ويقرؤه مع خادمه كلما غاب عنه صديقه ذاك، وإذا الجامعة تدعوه فيذهب إليها عجلا وجلا ذات ضحى، وهناك يلقى علوى باشا . رحمه الله . فيستقبله باسما له رفيقا به، وينبئه بأنه مسافر بعد أيام إلى فرنسا. فقد انجلت الغمرة بعض الانجلاء، وانهزم الألمان أمام باريس، وسعى ممثلو فرنسا فى مصر عند الحكومة وعند الجامعة لتعيدا طلابهما إلى الجامعات الفرنسية.

ومنذ ذلك اليوم أقبل الفتى على تهيئة نفسه للسفر مستأنفا حياته تلك التى كانت تملؤها الأحلام العذاب، والآمال العراض. ويقبل اليوم الموعود فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخ له يرافقه فى سفره، ويحيا معه فى فرنسا، ليتم درسه هناك، ويعين أخاه على الحياة الشاقة فى تلك البلاد الغريبة النائية. وقد أبت الجامعة أن تحتمل من نفقة هذا الأخ قليلا أو كثيرا. فاضطر الأخوان إلى أن يعيشا بمرتب واحد على ما فى ذلك من ضيق وشدة. وقبلت الأسرة أن تعينهما بشيء من مال يسير بين حين وحين، وعلى غير نظام مطرد.

وفى الرابع عشر من نوفمبر أبحر الفتى من الإسكندرية، ومعه أخوه وطالبان من طلاب البعثة الجامعية كان لهما فى حياته فى فرنسا شأن أى شأن.

فأما أحدهما فكان قد نيف على الأربعين، وكان غريب الأطوار حقا. كان قد ظفر بالشهادة الثانوية، وعمل فى ديوان من دواوين الحكومة، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية.

فكان يغدو على مكتبه ويروح إلى مدرسة الحقوق حتى ظفر بدرجة الليسانس الفرنسية من جامعة باريس، وكان مرتبه ضئيلا، ولكنه كان يحسن التدبير والاقتصاد، فيؤدى رسوم المدرسة، ويسافر إلى باريس فى كل عام لأداء الامتحان، حتى إذا أتم الدرس طمع فى أكثر من الدرجة التى ظفر بها. واتصل بعلوى باشا فقص عليه قصته، وتأثر الباشا بهذه القصة، وقدر أن هذا الفتى يجب أن يكون حريصًا على العلم محبا له مشغوفا به، مادام قد تكلف فى طلبه كل هذا العناء، وقتر على نفسه فى الزرق كل هذا التقتير حتى ظفر بهذه الدرجة التى أتيحت له. وجعله علوى باشا عضوا فى البعثة الجامعية ليمضى فى درس الحقوق حتى ظفر بدرجة الدكتوراه. لم يحفل بتقدم سنه. ولم يفرض عليه امتحانا أو شيئا يشبه الامتحان.

وأما الآخر فكان قد نيف على الثلاثين، وكان قد تخرج فى دار العلوم، وتقدم لمسابقة الجامعة فظفر فيها، وأرسل إلى فرنسا للتخصص فى الأدب العربي. فأقام فيها سنين متصلة، ثم رد إلى مصر حين أعلنت الحرب، ثم أعيد إلى فرنسا بعد أن انجلت عنها الغمرة الأولى. وكذلك لم يشعر الفتى وأخوه بشىء من الوحشة فى هذا السفر بفضل هذين الرفيقين. وكان سفرا غير قاصد، فيه كثير من جهد، وفيه شيء من خطر أيضا.

فقد اختيرت لسفر البعثة سفينة فرنسية فقيرة حقيرة رخيصة. وكان اختيارها لونا من الاقتصاد. وكان اسمها "أصبهان"؛ وكانت على بؤسها وفقرها مرحة تحب الرقص فى البحر، وتحسن اللعب على أمواجه ولا تحفل بما يلقى ركابها من عقاب حبها للرقص واللعب. وكانت تؤثر المهل على العجل، وتفضل الأناة على السرعة، وكانت السفن تعبر البحر بين الإسكندرية ومارسيليا فى أربعة أيام. فأما أصبهان فكانت تحب البحر وتؤثر أن تعبره فى ثمانية أيام لا فى أربعة؛ وصعد الفتى إلى "أصبهان" يتعثر فى جبته وقفطانه. ولم يكد يبلغ غرفته فى الدرجة الثانية ويسمع الجرس المؤذن بقرب إقلاع السفينة حتى خرج من جبته وقفطانه، وتخفف من عمامته، ودخل فى ذلك الزى الأوربى... وشغله دخوله فى ذلك الزى عن إقلاع السفينة واندفاعها فى طريقها هادئة أول الأمر، مضطربة بعد ذلك أشد الاضطراب، ورأى الفتى نفسه حين أقبل المساء وقد فارق مصر، ودفع إلى مغامرته تلك التى عرف أولها ولكنه لم يعرف ما يكون بعد أولها هذا من الأحداث والخطوب.

والحق أنه لم يفكر فى الأحداث ولا فى الخطوب، ولا فى أول المغامرة ولا آخرها، وإنما شغل بزيه الجديد ساعة وبعض ساعة، ثم شغل باضطراب السفينة بعد ذلك، فلم يفرغ منه إلا حين أتمت السفينة رحلتها وانتهت به إلى مارسيليا ذات مساء بعد ثمانية أيام طوال حافلة بالفزع والروع والضيق.

* * *

وقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها. لم يذهب إلى غرفة المائدة، وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة فى هذه السفينة التى لا تستقر، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التى يستعملها الناس حين يطعمون، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوربيين بيديه كلتيهما أو إحداهما، كما كان يصنع فى مصر؛ فليس له بد إذن من أن يصيب طعامه فى غرفته. وكان الرفاق قد وكلوا به خادما من خدم السفينة يحمل إليه غداءه وعشاءه، وقد أعد إعدادا حسنا، ليصيب منهما حاجته. فكان الخادم يحمل إليه الطعام فى موعده، فيضعه بين يديه ثم ينصرف عنه، ويغلق باب الغرفة من دونه، ثم يعود إليه بعد حين ليحمل ما وضع بين يديه من أطباق. وكان كلما عاد لحمل هذه الأطباق قال الفتى فى ضحكة حزينة جملة بعينها لا يغير منها حرفا حتى حفظها الفتى ولم ينسها: "ما أقل ما تصيب من الطعام!". وأفاق السفر ذات ليلة مذعورين، فقد اضطربت السفينة اضطرابا عنيفا مفاجئا، وكثرت فيها الجلبة، ثم وقفت السفينة فجأة، وجعلت الريح تعصف من حولها، واشتد اصطخاب الموج، وصوت بعض النساء، وعرف المسافرون أن عطبا قد أصاب محرك السفينة، ولم يشك أحد فى أن الخطر قريب.

وبينما كان السفر فى ذعرهم وروعهم، كان الرفيق الدرعمى مقبلا على ذقنه يعمل فيها الموسي، حتى إذا فرغ من ذلك دخل فى ثياب النهار كما تعود أن يدخل فيها قبل أن يخرج من غرفته فى كل يوم، ثم أقبل على الفتى متكلفا ضحكا يغالب به الروع. فلما رآه مستلقيا فى سريره قال متضاحكا: وإنك لتستقبل الآخرة على هذه الحال!

قال الفتى: وما تريد أن أصنع؟

قال الدرعمى: فإنى كرهت أن أستقبل الموت فى قميص، فحلقت ذقني، واتخذت زينتى لأغرق كريما لا يضحك الناس منى.

ثم اندفع فى ضحك يائس وأخذ يتغنى شعر البردة كما يتغنى فيه بعض أصحاب الطرق:

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وإنه لفى هذا العبث، وإذا اضطراب الناس يهدأ. فقد عرفوا أن فى السفينة من المهندسين والعمال من يستطيعون إصلاح ما أصاب محركها من عطب، وأنها ستستأنف سيرها بعد ساعات. وما أسرع ما استحال الروع إلى ضحك ولعب وابتهاج..

وتستأنف السفينة سيرها وقد سكنت، فهى لا تعصف، وسكن الموج فهو لا يقصف، ومضت السفينة فى طريقها هادئة مستأنية، كأن رشدها قد ثاب إليها، وكأنها هى قد ثابت إليه.

وتبلغ مارسيليا مساء ذلك اليوم، فيهبط صاحبنا من السلم لا يتعثر فى جبته وقفطانه، ولكن نفسه هى التى كان تتعثر فى هذه الحياة الجديدة التى يستقبلها، ولا يعرف كيف يلقاها، ولا كيف يحمل أعباءها، ولا كيف ينفذ من مشكلاتها.

ويبلغ الرفاق مدينة مونبلييه التى أمرتهم الجامعة أن يطلبوا العلم فيها عامهم ذاك، ولا يذهبوا إلى باريس حتى يؤذن لهم فى الذهاب إليها، وهم يبلغون تلك المدينة مع الليل، وهم يجهلون من أمرها كل شيء. ولكن رفيقهم ذاك الذى نيف على الأربعين وحلب الدهر أشطره كما كان يقول، وجعل نفسه رئيسا لهم بحكم السن، يقودهم إلى فندق حقير فقير كسفينتهم تلك التى عبرت بهم البحر، فإذا استقروا فى هذا الفندق وعبث بهم البرد أقبل الدرعمى متضاحكا وهو يقول للفتى:

أوتل مثل وجه الكلب لكن   لخاطر سلطن اصبر شويه

وسلطن هذا هو اسم الرفيق سلطان الذى قادهم إلى الفندق، ولكن ضرورة الشعر حذفت ألفه ليستقيم الوزن، وما أكثر ما تحذف ضرورات الشعر من الحروف!...

الفصل الحادى عشر

الفتى فى فرنسا..

واستقبل الفتى حياته فى مدينة مونبلييه سعيدا بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة، راضيا عنها كأحسن ما يكون الرضا. فقد حقق أملا لم يكن يقدر أنه سيحققه فى يوم من الأيام.

وكان يكفيه أن يفكر فى صباه ذلك الباس الذى قضاه مترددا بين الأزهر وحوش عطا، تشقى نفسه فى الأزهر، ويشقى جسمه ونفسه فى حوش عطا، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقسى ما يكون الضيق والعسر، وحياة عقلية مجدبة فقيرة كأشد ما يكون الإجداب والفقر، ونفس مضيعة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية. ثم يوازن بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التى أخذ يحياها فى هذه المدينة الفرنسية، لا يحس جوعا ولا حرمانا، يحمل إليه فطوره إذا أصبح ناعما لينا لا خشونة فيه ولا غلظ. فإذا جاءت أوقات الطعام فى وسط النهار وفى آخره، وجد فى اختلاف الألوان وتنوعها ما يذكره بطعامه ذاك المتشابه حين كان يغمس خبزه فى عسله ذاك الأسود مصبحا وممسيا، وحين كان يحب أن يتخفف من طعامه ذاك أحيانا ويخالف عن حلاوته البغيضة إلى شىء آخر، فلا يجد إلا ذلك الطعام الغليظ الذى كان الأزهريون يعيشون عليه فى تلك الأيام. فإذا أحب أن يتفكه فلا منصرف له عن البليلة فى الصباح والتين الغارق فى الماء إذا كان المساء أو الضحى. وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة الرقيقة التى كانت تعرض عليه فى غدائه وعشائه فى غير تقتير ولا تضييق، وفى كثير من إلحاح الخدم وأصحاب الفندق عليه فى أن يصيب منها أكثر مما أصاب.

ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية، لا يسمع درسا إلا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم، وأضاف إلى علمه القديم علما جديدا؛ وهو على قلة حظه من إحسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيرا من المشقة، ولا يبذل كثيرا من الجهد، ليفهم ما كان الأساتذة يلقون من الدروس فهما يغنيه ويرضيه. كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم، فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظا من النجح والتوفيق، وهو مع ذلك لم يكن ميسرا عليه فى الزرق، وإنما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذى لم يكن يتجاوز اثنى عشر جنيها لينفق منه على نفسه وعلى أخيه. وقد تهيأ له ما أراد من ذلك فى غير تكلف ولا عناء. كانت الحياة الفرنسية فى تلك الأيام هينة ميسرة، تتيح لفتيين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشا بهذا المرتب الضئيل عيشة راضية حين تقاس إلى ما كانا يلقيان فى مصر من قسوة الحياة وشظفها.

obeikandl.com

ثم لم يلبث الفتى أن فكر فى أنه لم يعبر البحر إلى فرنسا ليتردد بين الفندق والجامعة، وإنما أقبل إلى هذا البلد الغريب ليدرس ويحصل ويجوز الامتحان، ويظفر بالدرجات الجامعية التى لم يظفر فيها أحد قبله من مواطنيه. فلم يكن له بد من أن يظفر بدرجة الليسانس، ولم يكن إلى الظفر بتلك الدرجة سبيل فى تلك الأيام إذا لم يحسن الطالب لغتين لم يكن من إحسانهما بد. إحداهما لغة الدرس وهى اللغة الفرنسية التى كان الفتى قد أخذ منها بحظ يسير، والأخرى لغة قديمة كان الفتى يسمع عنها ولا يحققها ولا يعرف إلى العلم بها سبيلا، وهى اللغة اللاتينية.

* * *

وقد أخذ الفتى يتهيأ لإتقان الفرنسية من جهة، وتعلم اللاتينية من جهة أخرى. فالتمس لنفسه معلما خاصا يعينه من ذلك على ما كان يريد. وقد جعل رفاقه يبحثون له عن المعلم الذى يلائمه حتى يقيل لهم إن صاحبكم مكفوف، وليس له بد من أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءته، ليستطيع أن يعتمد على نفسه فى تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم.

ثم قيل لهم إن فى تلك المدرسة من مدارس المكفوفين أستاذا ضريرا قد يعين صاحبكم على حاجته. فسعوا إلى هذا الأستاذ، وقدموا إليه صاحبهم، وأعلن الأستاذ إليهم أنه زعيم بأن يعلم رفيقهم الكتابة والقراءة الفرنسية واللاتينية جميعا، ولم يطلب على هذا إلا أجرا ضئيلا فى نفسه، ولكنه كان ثقيلا على هذين الأخوين اللذين كانا يعيشان بمرتب شخص واحد.

وقد قبل الفتى مع ذلك أن يشق على نفسه وعلى أخيه، وأن يؤدى إلى الأستاذ أجره الذى طلبه. وكتب إلى الجامعة يستعينها فلم تبخل عليه بالعون، وقامت عنه بأداء هذا الأجر.

وأقبل الفتى على الكتابة البارزة يتعلمها، فلم يلبث أن أحسنها، ولكنه عندما حاول أن ينتفع بها فى درسه لم يجد إلى الانتفاع بها سبيلا. فلم تكن الكتب التى كان يحتاج إلى قراءتها قد طبعت على هذه الطريقة الخاصة. وكان ربما أتيح له الكتاب المطبوع على هذه الطريقة، فلا يكاد يأخذ فى قراءته حتى يضيق بهذه القراءة أشد الضيق، وينفر منها أعظم النفور. فهو قد تعود أن يأخذ العلم بأذنيه لا بأصبعه، وهو من أجل ذلك يجد المشقة كل المشقة فى تتبع هذه النقط البارزة حتى يؤلف منها الكلمة، ثم يؤلف من الكلمة وأمثالها جملة، ثم يؤلف من هذه الجملة وأمثالها كلاما يمكن أن يعمل فيه عقله وفهمه وبصيرته؛ وإذا هو يجد فى ذلك عسرا أى عسر، ويسأم ذلك أشد السأم وأقساه، ويرى أنه يستطيع أن يحصل من طريق أذنيه فى اللحظات القصيرة ما يحتاج إلى الوقت الطويل والملل الثقيل ليحصله من طريق أصابعه. وهو يعدل عن الكتابة البارزة وعن القراءة بالأصابع إلى طريقته التى ألفها إلا فى درس اللاتينية. فقد كان

حريصا على أن يتعلم هذه اللغة فى أناة ومهل، وكانت هذه الطريقة فى الكتابة والقراءة تواتيه وتلائم ابتداءه درس هذه اللغة وحاجته إلى الريث والأناة.

على أنه لم يكد يتقدم فى درس اللاتينية قليلا حتى سئم القراءة بأصابعه، وآثر الاستماع على تلمس الحروف، وأحس الحاجة إلى قارئ يقرأ عليه ما يريد فى اللاتينية والفرنسية جميعا. ولم يستغن عن أستاذه ذاك الذى كان يعلمه هاتين اللغتين. واستحى أن يطلب إلى الجامعة عونا جديدا. فقتر على نفسه أشد التقتير وأقساه، وعاش عيشة فيها شىء من غلظة وخشونة، ولكنها كانت على كل حال خيرا من حياته التى ألفها فى مصر.

*　　*　　*

على أن الأيام أبت إلا أن تشق عليه وترهقه من أمره عسرا. فقد كان يعيش مع أخيه عيشة راضية على ما فيها من قسوة ومشقة.. وكانا يديران أمرهما تدبيرا ملائما لطاقتهما المالية، ولكنهما لم يلبثا أن اختلفا واشتد بينهما الاختلاف، حتى أصبحت حياتهما خصاما متصلا وشقاء ملحا، وحتى اضطر إلى أن يفترقا.. يسكن كل واحد منهما فى منزل غير الذى يسكنه أخوه، ويلتقيان بين حين وحين. وقد اضطرهما ذلك إلى المبالغة فى التقتير على أنفسهما. فليست النفقات التى يقتضيها افتراقهما فى المسكن. كالنفقات التى كانا يحتملانها حين كانا يسكنان فى غرفة واحدة، ويختلفان إلى مائدة واحدة.

وكذلك اشتدت قسوة الحياة على هذين الأخوين الغريبين، ولكنها لم تنل من صبرهما، ولم تصرفهما عن جدهما فى الدرس والتحصيل. ولم تكن حياة الفتى على ذلك النحو مبغضة إليه، ولا ثقيلة عليه من جميع وجوهها، وإنما كانت مزاجا من الجد الصارم والهزل الباسم. يلتقيان أحيانا فيحيا الفتى حياة ليست حلوة ولا مرة، ولكنها تمر فى أول النهار، وتحلو فى آخره حين كان الفتى يلقى رفاقه ويسمع لأحاديثهم، ويقضى بينهم فيما كان يعرض لهم من المشكلات، وما أكثر ما كان يعرض لهم من المشكلات، ومن مشكلات الحب والغرام خاصة!.

وكيف تريد فتية من المصريين على أن يعيشوا فى فرنسا ويختلفوا إلى القهوات والأندية وبعض ما يقام من الحفلات بدون أن يداعبوا الحب أو يداعبهم الحب، وبدون أن تقسو عليهم دعابة الحب بين حين وحين؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع صديقين من أن تروقهما فتاة واحدة، وإذا هما يلتمسان إلى لقائها الوسيلة. فإذا أتيح لهما هذا اللقاء ابتغيا عندها مواقع الرضا، ثم لا يلبث أن يكون بينهما التنافس، ثم الخصومة، ثم التلاحي، ثم الفرقة. أيها ظفر عند صاحبتهما بالرضا فهو عدو لصاحبه الذى أخلفه الظن، وكذبه الأمل، ولم يقع من نفس الحسناء ما كان يرجو من موقع الرضا والارتياح. ولا تلبث هذه الخصومة بين الرفيقين أن تتجاوز الحب

إلى غيره من ألوان الحياة التى كانا يتعاونان عليها ويشتركان فيها. وإذا صاحبنا يصبح قاضيا بين رفاقه فى شئون الحب، وليس له أرب فيه ولا سبيل إليه. وأنى له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذى لا يحسن شيئا حتى يعينه عليه معين، وهو لا يرى وجوه الحسان، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن، أو كيف يبتغى إلى رضاهن الوسائل. فهو يغدو إلى الجامعة مصبحا، فإذا راح إلى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد. والرفاق يلمون به فى آخر النهار وأول الليل، فيختصمون بين يديه ويتخذونه حكما بينهم، وهو يصلح بين المختصمين مرة ويقضى لبعضهم على بعض مرة.

* * *

ولكن الليل لا يكاد يتقدم حتى يتفرق عنه رفاقه جميعا، وإذا هو يخلو إلى نفسه هذه الخلوة المرة التى لا يجد عليها معينا. قد جلس وحده فى غرفته تداعب نفسه الخواطر المختلفة الكثيرة. فيها ما يسر، وفيها ما يسوء. فيها ما يحيى الأمل، وفيما ما يملأ القلب يأسا وقنوطا.

وما يزال الفتى جالسا فى مجلسه ذاك من غرفته تعبث به خواطره هذه المختلفة لا يسأل عنه سائل ولا يلم به ملم، وإنما هى الوحدة المطلقة القاسية التى كانت تذكره وحدته فى غرفته فى حوش عطا، حين لم يكن يؤنسه إلا صوت الصمت وما كان يتردد فيه أحيانا من أزيز بعض الحشرات.

وربما أسرفت عليه القسوة حتى تنتهى به إلى أقصاها فيمتنع عليه النوم، ويأتى الأرق إلا أن يكون له حليفا. وإنه لفى ذلك وإذا بابه يطرق، وقد كاد الليل يبلغ ثلثيه. فإذا أذن للطارق بالدخول فتح الباب. وأقبل عليه أحد رفاقه وقد أخذ من عبث الشباب بأعظم حظ ممكن، وهو لا يريد أن يأوى إلى سريره حتى يتحدث ببعض عبثه إلى صاحبه. فإذا فرغ من حديثه وانصرف ترك صاحبنا وقد انتهى به الحزن والضيق إلى غايتهما، وإذا هو يقضى ليلة بيضاء لا يذوق فيها للنوم طعما. فإذا أصبح غدا على حياة فاترة لا خير فيها لعقله ولا لجسمه.

وهو على ذلك وعلى ضيق ذات يده، وعلى المشقة الشاقة التى كان يلقاها فى الاختلاف إلى الجامعة والانتفاع بما كان يسمع من الدروس، راض عن حياته كل الرضا، مطمئن إليها أشد الاطمئنان لا يتمنى إلا أن يمضى فيها حتى ينتهى إلى ما قدر له من غاية، وهو واثق بأنه سيبلغ من هذه الحياة ما يريد، سيحسن الفرنسية، بل هو قد أخذ يحسنها ويطلق بها لسانه فى غير مشقة، وسيتعلم اللاتينية، وسيتهيأ للامتحان. ومن يدرى لعله أن يكون أول طالب مصرى يظفر فى يوم من الأيام بدرجة الليسانس فى الآداب.

وإنه لقى هذه الحياة الحلوة المرة القاسية اللينة التى يحبها أحيانا كأشد ما يكون الحب، ويضيق بها أحيانا أخرى كأشد ما يكون الضيق، وإذا الحياة تبتسم له فجأة فى يوم من أيام الربيع تغير حياته كلها تغييرا.

وإلا هو لا يعرف الوحدة ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سبيلا، وكيف تبلغه تلك الخواطر التى كانت تؤذيه وتضنيه وتؤرق ليله، وفى نفسه صوت عذب رفيق يشبع فيه البر والحنان، ويقرأ عليه هذا الأثر أو ذاك من روائع الأدب الفرنسى القديم؟

* * *

يرحم الله أبا العلاء، لقد ملأ نفس الفتى ضيقا بالحياة وبغضا لها، وأيأسه من الخير، وألقى فى روعه أن الحياة جهد كلها ومشقة كلها، وعناء كلها. وإذا هذا الصوت يذود عن نفس الفتى كل ما ألقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط، كأنه تلك الشمس التى أقبلت فى ذلك اليوم من أيام الربيع، فجلت عن المدينة ما كان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذى كان بعضه يركب بعضا، والذى كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها إشفاقا وروعا.

وإذا المدينة تصبح كلها إشراقا ونورا.

سمع الفتى ذلك الصوت يقرأ عليه شيئا من شعر راسين ذات يوم. فأحس كأنه خلق خلقا جديدا، ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا.

ولم يعرف الفتى أنه أحب الحياة قط كما أحبها فى الثامن عشر من شهر مايو فى ذلك العام.

ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ ذلك اليوم.

ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة فى الكتب كما جعل ينتفع بهما منذ ذلك اليوم أيضا.. حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب البر الرفيق لمقدم الصيف.

فقد كان الصوت يصحبه دائما، لا يكاد يخلو إلى نفسه فى ليل أو نهار إلا سمعه يقرأ عليه هذا الكتاب أو ذاك، فى تلك النبرات التى كانت تسبق إلى قلبه فتملؤه مرضا وغبطة وسرورا.

وإنه لفى هذه السعادة المتصلة، وإذا صاحبه الدرعمى يقبل عليه ذات صباح مظلم الوجه والنفس والصوت. فينبئه بأن كتابا قد وصل إليه من الجامعة تنبئه فيه بأن طلاب البعثة جميعا يجب أن يعودوا إلى مصر، وأن يأخذوا إليها أول سفينة تتاح لهم بعد قراءة هذا الدعاء.

وقد سمع الفتى حديث صاحبه فأغرق فى ذهول عميق، ثم أفاق بعد وقت لم يدر أقصر أم طال، وإذا هو يرى آماله العذاب قد استحالت فى أقصر لحظة إلى آمال كذاب، ويرى حياته المشرقة الباسمة الحلوة قد أصبحت ظلمة عابسة مرة ممضة. ولكنه على ذلك لم يتسلم لليأس، وإنما أخذ يتعلق بالوهم، فيبرق إلى من كان يعرف من الصديق القادرين على أن يسعوا له فى الخير عند الجامعة أو عند السلطان. ويبرق إلى القصر، وينتظر ما يعود به البرق عليه، وإذا البرق لا يعود عليه إلا بالإلحاح فى الدعاء أن يعود إلى مصر فى غير إبطاء.

ويرى الفتى نفسه ذات يوم من شهر سبتمبر يسعى مع رفيقه الدرعمى إلى السفينة، وكلاهما محزون كاسف البال، كأنه لا يسعى للعودة إلى الوطن، وإنما يساق إلى الموت.

الفصل الثانى عشر

الصوت المعذب..

وكانت أيام السفينة الستة طوالا ثقالا قد ألقى عليها الحزن غشاء شاحبا بغيضا. فلم يجد الصاحبان فيها للذة السفر وراحته طعما، وإنما كان الهم يصبحهما ويمسيهما، وكانت خيبة الأمل حديثهما فى النهار حين يلتقيان، وحديث نفسيهما فى الليل حين يفترقان، وما لهما لا يشقيان بهذه العودة المفاجئة، وأحدهما قد أنفق فى باريس أعواما طوالا ثم لم يحقق من آماله شيئا، وإنما هم ولم يفعل، فتعلم الفرنسية واختلف إلى الدروس، وأخذ يتهيأ لإعداد رسالته التى ينال به درجة الدكتوراه، وإذا الحرب ترده عن ذلك ردا. فإذا عاد إلى فرنسا واستأنف ما كان فيه من استعداد للرسالة والامتحان ردته الأزمة التالية التى أدركت الجامعة إلى وطنه خائبا فارغ اليدين لم يصنع شيئا ولم يظفر بشىء.

ولو قد التمس لنفسه عملا حين تخرج فى دار العلوم ولم يتكلف ما تكلف من السفر والغربة، لكان فى ذالك الوقت معلما فى هذه المدرسة أو تلك من مدارس الدولة. ولكنه يرى نفسه ضائعا لا يكاد يدنو من الغاية حتى يصد عنها صدا. تصده الحرب مرة، وتصده الأزمة المالية مرة أخرى، وهو يعود إلى مصر ليعيش فيها فارغا لا يدرى ماذا يعمل، ولا يعرف كيف يكسب القوت؟

وأما الآخر فقد جد وكد واحتمل المشقة والعناء، وداعب الأحلام والآمال حتى إذا أشرف على البعثة ولم يكن يقدر أنه سيشرف عليها رده عنها إعلان الحرب، فعاش أشهرا عيالا على أبيه وأخيه وذاق مرارة الحياة التى لا تغنى عنه وعن غيره شيئا. ثم أتيحت له البعثة فأقبل على عمله مغتبطا سعيدا يكاد يخرجه النشاط من إهابه. وقد حاول من أمور الدرس ما أتيح له فيه كثير من التوفيق، حتى ظن أنه بالغ ما يريد، ثم عرض له فى أثناء إقامته فى فرنسا ما أحيا فى نفسه آمالا لم تكن تخطر له ببال. فهو قد عرف أنه يستطيع أن يكون كغيره من الناس، بل خيرا من كثير من الناس، يحيا حياة فيها رضا وغبطة، وفيها نعمة وبهجة. وفيها سكون إلى هذه الرحمة التى كان قد استيأس منها والتى كان أبو العلاء قد ألقى فى روعه أنه لن يذوقها ما عاش. وإذا الأيام تدنيه أو تدنيها منه.

وإنه لفى حياته تلك الراضية الناعمة على ما كان فيها من خشونة وعسر، وإذا الجامعة تدعوه إلى مصر ليعود إليها كما خرج منها، كأنه لم يداعب الأمل إلا ليتجرع مرارة اليأس كأبغض ما تكون مذاقا.

وهو قد عرف التبطل والفراغ فى أشهره تلك التى قضاها فى مصر، بعد أن أعلنت الحرب، وهو يعود ليلقى التبطل والفراغ مرة أخرى فى مصر.

أف لهما من رفيقين بغيضين! ولقد كان يقطع الأمد بين مونبليه ومارسيليا أثناء ليلته تلك الثقيلة وليس فى نفسه إلا شىء واحد، هو هذا الصوت العذب الذى طالما قرأ عليه آيات الأدب الفرنسي، وهو الآن يناجيه فى حزن أليم.. وإذن فلن نلتقى بعد أن يقضى الصيف!

وقد صحبه هذا الصوت أيام السفينة يناجيه مناجاة اليأس مرة، ومناجاة الأمر مرة أخرى، يشفق عليه من الأحداث، ويمنيه الانتصار والخروج منها، ويتحدث إليها بأنها الغمرات ثم ينجلين. وبأن لكل أزمة غاية، وبعد كل حرج فرجا، وهو مضطرب بين هذه الابتسامات المضيئة الخاطفة التى لا تكاد تعرض له حتى تنصرف عنه، وهذا الحزن الجاثم المقيم الذى لا يفارقه إلا ريثما يعود إليه!

وتبلغ السفينة ثغر الإسكندرية، وإذا الوطن زاهد فى هذين الصاحبين البائسين، لا يريد أن يلقاهما ولا أن يضمهما بين ذراعيه، فقد كانت الحرب قائمة، وكانت قيودها شدادا ثقالا. وكان أمر مصر إلى غير أهلها، وكان أمر الثغور خاصة ضيقا حرجا، قد فرضت عليه رقابة أى رقابة، فلا تكاد السفينة تستقر فى مرساها، ولا يكاد الصاحبان يحاولان الهبوط بها، حتى يردا عن ذلك ردا شديدا، فلم يكن يكفى أن يصل المصرى إلى وطنه ليدخله، وإنما كان يجب أن ينتظر ويطول انتظاره حتى يؤذن له بالدخول.

وقد انتظر الصاحبان حتى تستأذن السلطة فى السمح لهما بترك السفينة والنزول إلى أرض الوطن، وأبرقا إلى الجامعة وإلى من يعرفان من الصديق يتعجلان هذا الإذن. ولكن الأمور لم تكن تجرى فى سير وإسماح، وإذا هما يقيمان فى السفينة يوما ويوما. وصنع الله لهما فى هذين اليومين أن كانا فيهما مضطربين أشد الاضطراب، يريدان أن تفتح لهما أبواب الوطن، ويتمنيان فى أعماق ضمائرهما أن تظل مغلقة، وأن تعود بهما السفينة إلى مارسيليا.

ولكن ماذا يصنعان فى مارسيليا؟

بل كيف يعيشان فى السفينة نفسها فى أثناء عودتهما إلى مارسيليا؟ ومن لهما بثمن هذه العودة؟

ولكن أبواب الوطن تفتح لهما بعد لأى، والوطن يتلقاهما كئيبا، فيضيف إلى حزنهما حزنا وإلى شقائهما شقاء.

وقد أقام صاحبنا فى القاهرة قريبا من ثلاثة أشهر لا يعرف إنه شقى فى حياته كلها كما شقى فيها، ولا أنه سعد فى حياته كلها كما سعد فيها. ولكن شقاءه كان طويلا ملحا، وسعادته

كانت سريعة خاطفة. كان يشقى بالتبطل والفراغ والبؤس، وكان يسعد بذلك الصوت العذب الذى كان يناجيه بين حين وحين، وربما أيقظه من نومه مفزعا، مسرورا مع ذلك بهذا الفزع. وكان يسعد بهذه الرسائل التى كانت تصل إليه بين حين وحين فيها كثير من الأمل المشفق، وكثير من التشجيع على احتمال النائبات، وربما اشتملت بعض هذه الرسائل على زهرة قد جففت وأرسلت إليه ليحملها كما تحمل التمائم ولتذكره إن عرض له النسيان.

وشهد الله ما عرض له النسيان قط..

فى هذه الأشهر الثلاثة شكا الفتى كما لم يشك قط فى حياته، شكا شعرا ونثرا حتى لامه فى ذلك بعض الصديق، وقال له قائلهم أين الصبر؟ وأين الإجمال؟ وأين الشجاعة والاحتمال؟ وأين ذهب عنك الحياء حتى كتبت فى بعض الصحف هذين البيتين:

الحمــد لله علــى أننــى ... قد صرت من دهرى إلى شر حال

لا أملـك القـوت ولا أبتغـى ... مـا فـاتنى منـه بـذل السـؤال

وقال له قائلهم أيضا: املك عليك نفسك، فإنك إن تكن تشكو الزمان إلى الزمان فهو لن يسمع لك، لأن الزمان أصم غبى غافل ذاهل، لا يعرف بنيه ولا يسمع لهم، وإن كنت تشكو الزمان إلى الناس، فالناس مشغولون عنك بأنفسهم، وهم بين رجلين: عاطف عليك، ولكنه لا يقدر لك على شيء، وقادر على معونتك، ولكنه لا يحفل بك ولا يلقى إليك بالا، ولو قد أهدى إليك العون لما قبلته منه، فما أرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان.

ولكن صاحبنا لم يقلع عن شكايته، لأنه لم يكن يشكو الزمان إلى الزمان ولا يشكو الزمان إلى الناس، ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئا، وإنما كانت الشكوى غناء نفسه المحزونة وباله الكئيب.

فى تلك الأيام كان عبد الحميد حميد . رحمه الله . يصدر جريدة "السفور" فى كل أسبوع، ويطلب إليه وإلى غيره من الصديق أن يعينوه بالكتابة فيها، فكان صاحبنا يرسل إليه حديث نفسه ذلك المر.

وكان يتردد على الجامعة ويسمع بعض دروسها، فسمع ذات يوم درس الأستاذ المهدي، رحمه الله، وكان له مع الأستاذ تلك الخطوب التى رويت فى حديث مضى، والتى كادت تفصله من بعثة الجامعة لولا أن أعضاء مجلس الإدارة كانوا أفقه وأذكى من أن يستجيبوا للأستاذ رحمه الله.

obeikandl.com

وفى تلك الأيام طلب عبد الحميد حمدى إلى الفتى أن ينشر كتابه عن أبى العلاء، فاستجاب الفتى لذلك سعيدا محبورا. وجد فى ذلك تسلية لبعض همه، وشغلا لبعض وقته، وإرضاء لغروره الذى كان فى حاجة إلى بعض الرضا، بعد أن أسرفت الأيام فى القسوة عليه. وأى رضا للغرور أعجب إليه وآثر فى نفسه من أن يظهر له كتاب فى أيامه تلك الشداد؟

وقد نشر الكتاب، ولكن صاحبنا لم يفد من نشره مالا قليلا أو كثيرا، ولم يفد منه رضا قليلا أو كثيرا. فقد أعجل عن هذا كله، دعاه علوى باشا ذات يوم، وأنبأه . فى رفق به وعطف عليه لم ينسهما قط . أن أزمة الجامعة قد انفرجت، وأن عليه أن يتأهب للسفر، فسيبحر مع صاحبه الدرعمى وغيره من أعضاء البعثة بعد أيام.

ثم أنبأته الجامعة بعد ذلك بأنه سيتشرف مع زملائه أعضاء البعثة بلقاء السلطان حسين كامل.

وقد أتيح لهم هذا اللقاء فى ضحى يوم من الأيام، ذهبوا إلى القصر يقودهم علوى باشا، وأدخلوا على السلطان، فلقيهم لقاء حسنا، وألقى على الفتى سؤال لم يعرف كيف يرد عليه.

سأله: من أول من رفع شأن التعليم فى مصر؟

فوجم الفتى ولم يرجع جوابا.

قال السلطان وهو يرب على كتفه وينطق فى لهجة تركية: جنة مكان إسماعيل باشا.

ثم صرف الرفاق، ولم يكادوا يخرجون من غرفة الاستقبال حتى أنبأهم منبئ بأن السلطان قد تفضل وأجاز كل واحد منهم بخمسين جنيها..

وخلص الرفاق بعد أن خرجوا من القصر نجيا؛ فقرروا أن يهدوا جوائزهم إلى الجامعة معونة لها واعترافا ببعض ما قدمت إليهم من جميل. وكانوا بهذا القرار سعداء حقا كأنما أهدوا إلى أنفسهم خيرا عظيما ومعروفا جزيلا.

وهم يسعون إلى علوى باشا . رحمه الله . ليرفعوا إليه قرارهم ذاك، منتظرين أن يسمعوا منه رضا عنهم وثناء عليهم وتشجيعا لهم على أن يكونوا أخيارا. ولكن علوى باشا يلقاهم ويسمع منهم، ثم يغرق فى ضحك متصل، ثم يقول لهم: ما هذا الكلام الفارغ؟! خذوا أموالكم واذهبوا، فاعبثوا بها فى باريس، أيها الحمقى.. فمن حقكم أن ترفهوا عن أنفسكم أياما بعد ما لقيتم فى هذه الأشهر من عناء طويل ثقيل!!

obeikandi.com

obeikandl.com

ثم يسكت حينا ثم يقول: فإذا أصبحتم أغنياء فاستأنفوا ما أقدمتم عليه من خير، وما أراكم تفعلون يومئذ، فستعرفون قدر المال.

وانصرف الرفاق عن علوى باشا لا يعرفون أكانوا راضين، لأنه قد حفظ عليهم أموالهم لينفقوها فى باريس.. أم كانوا ساخطين لأنه لم يقبل منهم تبرعهم ذاك الذى أقدموا عليه مخلصين؟

ويفد الرفاق صباح يوم إلى الجامعة ليأخذوا منها تذاكر السفر، ولكن صاحبنا يسمع ما يؤذيه أشد الأذى وأمضه.

فقد أبت شركة السياحة أن تصرف له تذكرة السفر إلا بإذن خاص من

المفوضية الإيطالية، فقد كان الرفاق سينزلون فى نابولي، وكانت الشركة تخشى ألا يؤذن لصاحبنا بالنزول فى إيطاليا لأنه ضرير ولا يحسن السعى فى اكتساب الرزق.

وظن الفتى، وفى قلبه حزن أى حزن ولوعة أى لوعة، أنه سيرد عن السفر مرة ثالثة. ولكن الأستاذ لطفى السيد والأمير أحمد فؤاد ييسران له سفره، ويصبح من غد فيركب القطار إلى بورسعيد، ويصعد إلى سفينة هولندية تعبر به البحر إلى نابولى.

وما أعظم الفرق بين سفره هذا إلى نابولى وعودته تلك إلى الإسكندرية! كان لا يملك نفسه من الفرح والمرح والسرور. وكان كل شيء يضحكه ويغريه بالبهجة والاغتباط حتى حين أقبل الخادم عليه وعلى صاحبه الدرعمى بعد أن تقدم الليل قليلا فقال لهما: إذا سمعتما الجرس فأسرعا إلى اتخاذ منطقة النجاة ثم أسرعا إلى الزورق المخصص لكما.

قال الدرعمى: وفيم هذا كله؟

قال الخادم: فإنك تعلم أن الحرب قائمة، وأننا لا نأمن من أن تعرض لنا فى الطريق إحدى الغواصات، ثم انصرف.

وأخذ صاحبنا الدرعمى يعول شاكيا باكيا ذاكرا أمه التى لن يراها ولن تراه والفتى مغرق فى ضحك لا يكاد ينقضى.

ولم تعرض للسفينة غواصة، ولم يلق المسافرون كيدا، وإنما بلغوا مدينة نابولى ذات صباح؛ ولم يكادوا يطأون الأرض الإيطالية حتى ألح صاحبنا على صديقه الدرعمى فى الإسراع إلى مكتب البريد.

وهناك وجد رسالتين كانتا تنتظرانه من باريس. فقرأهما عليه صديقه مرة ومرة، فلما طلب منه قراءتهما للمرة الثالثة، قال له منكرا: إليك عني، فإن فى مدينة نابولى ما هو أنفع لنا وأجدى علينا من ترديد هذا الكلام الذى حفظناه عن ظهر قلب!

وأنفقنـا فـى نـابولى يومـا سـعيدا، حتـى إذا كـان الليـل، ركبـا القطـار إلـى بـاريس.

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

فى الحى اللاتينى..

وكان صاحبنا مقسم النفس بين السعادة المشرقة والشقاء المظلم فى أثناء سفره هذا الطويل منذ ترك القاهرة إلى أن بلغ باريس.

كان سعيدا لأن الغمرة قد انجلت عنه، فاتصل من إقامته فى فرنسا ما انقطع، وأذن الله له فى أن يتم ما بدأ من الدرس، ويحاول تحقيق ما كان يداعب من الآمال، ويسمع من جديد ذلك الصوت العذب يقرأ عليه روائع الأدب الفرنسى وأوليات التاريخ اليونانى الرومانى، ويعينه على درس اللاتينية.

وليس هذا كله بالشىء القليل، وبعض هذا كان جديرا أن ينسيه كل ما لقى من جهد، وكل ما احتمل من عناء. ولكنه كان يحمل فى نفسه ينبوعا من ينابيع الشقاء لا سبيل إلى أن يغيض أو ينضب إلا يوم بغيض ينبوع حياته نفسها، وهو هذه الآفة التى امتحن بها فى أول الصبا، شقى بها صبيا، وشقى بها فى أول الشباب، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها، بل أتاحت له أن يقهرها ويقهر ما أثارت أمامه من المصاعب وأنشأت له من المشكلات؛ ولكنها كانت تأبى إلا أن تظهر له بين حين وحين أنها أقوى منه، وأمضى من عزمه، وأصعب مراسا من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة.

والغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤذيه فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره. كانت تؤذيه سرا ولا تجاهره بالخصومة والكيد. لم تكن تمنعه من المضى فى الدرس، ولا من التقدم فى التحصيل، ولا من النجح فى الامتحان حين يعرض له الامتحان، وإنما كانت أشبه شىء بالشيطان الماكر المسرف فى الدهاء الذى يكمن للإنسان فى بعض الأحناء والأثناء بين وقت ووقت، ويخلى له الطريق يمضى فيها أمامه قدما، لا يلوى على شىء. ثم يخرج له فجأة من مكمنه ذاك هنا أو هناك، فيصيبه ببعض الأذى، وينثنى عنه كأنه لم يعرض له بمكروه بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحس الدقيق والشعور الرقيق، وفتح له بابا من أبواب العذاب الخفى الأليم.

كان حين ركب السفينة لأول مرة وخرج من زيه الأزهرى ودخل فى زيه الأوربى الجديد قد نسى شيئا واحدا لم يحسب له حسابا لأنه لم يكن يخطر له ببال، نسى بصره ذاك المكفوف، وأجفانه تلك التى كانت تتفتح ولكن على الظلمة المظلمة.

وكان قد قرأ فيما قرأ من أحاديث أبى العلاء أنه كان يقول: إن العمى عورة. وفهم هذا كما فهمه أبو العلاء نفسه. فكان يتحرج فى كثير من الأشياء أمام المبصرين. وكان يستخفى بطعامه وشرابه كما كان يستخفى بهما أبو العلاء حتى لا يظهر المبصرون منه على ما يثير الإشفاق، والرثاء أو السخرية.

ولم يخطر له قط أن الحياة الحديثة تفرض عليه أن يستر أجفانه تلك التى لا تغنى عنه شيئا سترا ماديا. وقد أنفق أيامه الأولى فى السفينة الأولى على هذا النحو، ولكنه لم يلق كيدا، لأنه لبث تلك الأيام قابعا فى غرفته لا يتجاوز بابها مهما تكن الظروف، إلا أن يضطر إلى ذلك اضطرارا، فكان لا يخرج فى تلك الحال إلا حين يتقدم الليل.

فلما بلغ مارسيليا نبهه رفاقه فى تلطف أى تلطف أن تقاليد الفرنسيين تقضى على مثله أن يضع على أجفانه تلك غطاء من زجاج أسود. واشتروا له غطاء من تلك الأغطية الزجاجية السود التى يتقى بها المبصرون ضوء الشمس. ولم يؤذه تنبيه الرفاق له إلى ذلك وإنما رأى فيه تجديدا، وارتاح إليه بعض الارتياح، وكاد يعفى من الشقاء بعينيه المظلمتين، ثم لم يفكر فى شيء من أمرهما ولا من أمر غطائهما ذاك الأسود حتى عاد إلى مصر. وفى مصر لقيه أكبر إخوته رحمه الله. وكان مطربشا ميالا إلى الترف على ضيق ذات يده وضآلة مرتبه. فلما رآه أنكر غطاء عينيه وقال: إنه رخيص حقير لا يليق بمثلك.

قال الفتى: وما على أن يكون رخيصا أو حقيرا، فما ينبغى لمثلى أن يزين بمثل هذا الغطاء.

قال أخوه: ولكن غطاءك هذا لا يزيد ثمنه على قرشين اثنين، وأنا مهد إليك خيرا منه أستر لعينيك وأليق بمكانتك بين الذين تلقاهم من الرفاق والصديق، وبين الذين تزورهم من أصحاب المكانة الظاهرة فى مصر.

ثم أهدى إليه غطاء ذهبيا، وعزم عليه ليتخذنه مكان ذلك الغطاء الرخيص الحقير.

واستجاب الفتى لأخيه شاكرا رفقه به وعطفه عليه. وأقام فى مصر ما أقام يحمل على أنفه وأذنيه ذلك الغطاء الذهبى الذى لم يكن رخيصا ولا حقيرا. ولكن عودته إلى أوربا تتقرر ويغدو على الجامعة ذات يوم فيقرأ عليه كتابان، ثم يروح إلى منزله فيقرأ عليه كتاب ثالث كان قد حمله البريد صباح ذلك اليوم. وتملأ هذه الكتب الثلاثة قلب صاحبنا غما وهما وبغضا للحياة وضيقا من الناس، وتلقى على نفسه ووجهه غشاء صفيقا من الكآبة ينكره الرفاق.

وينكره علوى باشا . رحمه الله . حين يراه وهو يركب القطار ، ويرى على وجهه هذا الغشاء الكئيب، فيهمس فى أذنه: مالى أراك محزونا كئيبا. وقد كنت أقدر أن أراك اليوم أشد ما تكون ابتهاجا وإشراقا.. ألا يسرك أن تعود إلى فرنسا؟

ولم يجب الفتى.. ولكن دمعتين تنحدران على خديه.

وإذا علوى باشا يضمنه إليه ويقبل جبهته قبلة ملؤها الحنان والبر لم ينسها قط.

ثم يهمس فى أذنه: أقسم لك يا بنى ما عاد صديقك هذا . يريد الدرعمى . إلى فرنسا إلا من أجلك.. ثق بالله ولا تخف شيئا..

ويمضى القطار وقد سكت البكاء عن الفتى. ولكن هذه الكتب الثلاثة لم تسكت عنه، وإنما رافقته فى أثناء سفره كله ملحة عليه بالعذاب، حتى لكانت جديرة أن تبغض إليه نفسه لولا ذلك الصوت العذب كان يناجيه بين حين وحين، فيرد إلى نفسه المروعة شيئا من أمن وإلى قلبه اليائس من أمل.

كان أول هذه الكتب الثلاثة من علوى باشا إلى أكبر إخوته ذاك المطربش ينبئه فيه بأن الظروف المالية للجامعة قد فرضت عليه أن ترد بعثتها إلى مصر كارهة، وأنه حريص أشد الحرص على أن يتم أخوه درسه، لأنه يتوسم فيه خيرا، ويكره أن يعود قبل أن يحقق أمله من السفر إلى فرنسا، ويقترح عليه أن ترسل الأسرة نصف المرتب الذى كانت الجامعة تمنحه للفتى، ويتبرع هو بالنصف الآخر حتى يبلغ الفتى أربه، ويعود وقد ظفر بالدرجات الجامعية الفرنسية، ويصبح أستاذ فى الجامعة.

وكان هذا الكتاب جديرا أن يملأ قلب الفتى سرورا ورضا وشكرا لعلوى باشا، ذلك الذى كان الناس يكثرون الحديث عن حرصه على المال وإشفاقه من إنفاقه فى غير موضعه، وهو يتبرع بمقدار من المال فى كل شهر ليعين هذا الفتى المكفوف علن أن يبلغ من الدرس فى أوربا ما كان يريد.

نعم، كان هذا الكتاب جديرا أن يملأ قلب الفتى سرورا وبشرا وشكرا لذلك الرجل الكريم النبيل، ولكن رد أخيه على هذا الكتاب محا من قلبه كل سرور وكل بشر، وإن لم يمح منه الشكر الدائم والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الرجل الكريم.. كان رد أخيه بشعا حقا، كان يشكر فيه للباشا فضله وكرمه، ويعتذر فيه عن الأسرة بأنها فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تراد عليه. فمرتبه هو ضئيل لا يبلغ العشرين جنيها، وله بنون آخرون ينفق على تعليمهم فى المدارس، وكم كانت الأسرة تتمنى أن تعين هذا المسكين على أن يتم درسه لو وجدت إلى ذلك

obeikandl.com

سبيلا! وهى تطلب إلى الباشا أن يستعين بالسلطان على تعليم هذا البائس، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلا فليرده إلى مصر وليستبق رعايته له وعطفه عليه.

وكذلك رأى الفتى رجلا غريبا مستعدا للقيام ببعض نفقته فى أوربا، وأخا قريبا كارها لبعض ما يطلب إليه من ذلك. والغريب أنه لم ينبئ بأمر هذا التبرع من علوى باشا أباه ولا أخاه الشيخ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها. وكان له . رحمه الله . عذره فى هذا الكتمان. فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنيهات تبلغ العشرة مرة، وتزيد عليها مرة أخرى، ويكلفه أن يرسلها إلى أخويه فى أوربا معونة لهما على الحياة، فكان يتلقى هذه الجنيهات فإذا استقرت فى يده لم يسهل عليه إرسالها إلى أوربا، وإنما أنفقها فى بعض شأنه هو.

أما الكتاب الثالث فكان من أكبر إخوته ذاك يودعه ويتمنى له النجح والتوفيق، ويسترد غطاء عينيه الذهبى، لأنه كان شديد الحاجة إليه.

وما أيسير ما رد الفتى ذلك الغطاء الذهبى، وعاد إلى غطائه ذاك الرخيص الحقير الذى لم يكن ثمنه يزيد على قرشين اثنين. ولكن كتاب أخيه فى أمر ذلك الغطاء قد أضاف إلى حزنه حزنا، وإلى ألمه ألما. وعاد إلى فرنسا سعيدا محبورا، ولكنه مع ذلك كان مزودا بمقدار من الشقاء غير قليل.

ولم ينس صاحبنا قط أنه أجلس فى مكانه من القطار حين بلغ روما وقد انتصف الليل، فلم يبرح مكانه ذاك إلى جانب النافذة إلا حين بلغ القطار باريس بعد ثلاثين ساعة كاملة لم يتحرك، وإنما كان أشبه بمتاع قد ألقى فى ذلك الموضع، وانتظر حتى يبلغ القطار غايته لينقل إلى موضع آخر. لم يتحرك، وكان أشبه شىء بالمتاع، ولكنه كان متاعا مفكرا. يفكر مرة فيما حفظ من قول أبى العلاء إن العمى عورة، وقد فهمه الآن على وجهه وهو يرفع يده بين حين وحين ليتحقق من أن ذلك الغطاء الرخيص الحقير مازال يستر عينيه اللتين كان يجب أن تسترا.

ويفكر مرة أخرى فى الفقر والغنى، وفى الذين لا يعرفون كيف ينفقون ما يتاح لهم من المال، فيكدسونه أكداسا أو ينثرونه نثرا فيما لا يجدى عليهم ولا على غيرهم شيئا، والذين لا يجدون ما ينفقون ليقيموا أودهم ويستروا جسمهم ويستروا عورة العمى حين تفرض عليهم آفته، وفى الذين تسمو هممهم إلى أكثر من إقامة الأود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين إلى الاغتراب فى طلب العلم، ثم لا يجدون أيسر ما يحتاجون إليه فى ذلك. يبخل عليه القادرون، ويبخل عليه الأقربون، ويهم بالإحسان إليه بعض الأخيار فيردون عن ذلك ردا.

ويفكر مرة ثالثة فى ذلك الصوت العذب الذى كان ربما ألم به بين حين وحين مواسيا له مترفقا به قارئا عليه هذا الفصل أو ذاك من هذا الكتاب الفرنسى أو ذاك، منبئا له بين ذلك بأنه ينتظره فى باريس ليقرأ عليه، وما أكثر ما سيقرأ عليه!

لبث فى مكانه ذاك لم يبرحه ثلاثين ساعة كاملة، يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتى موعده فيرده فى رفق ولكن فى تصميم، ويعرض عليه الرفاق الشراب بين وقت ووقت فيرده فى رفق وفى تصميم أيضا. ويريد الرفاق أن يراجعوه فى ذلك فيجدون منه إعراضا وصمتا، حتى ظنوا به الظنون، وحتى يقول له رفيقه الدرعمى ما رأيت كاليوم رجلا لا يخاف البحر على هوله وعلى ما كان يذكر من أمر الغواصات، فإذا ركب القطار امتلأ قلبه رعبا ورغب حتى عن الطعام والشراب. أشجاعة حين كان يستحب الجبن، وجبن حين يصبح الجبان مثيرا للهزء والسخرية؟ ما الذى تخاف من القطار؟ إن قطار أوربا كقطار مصر لا فرق بينهما. ألم تأكل قط حين ركبت القطار فى مصر؟

ثم ينصرف عن هذا الحديث إلى غنائه ذاك الذى كان يتغنى به أمام بعض الفتيات الفرنسيات، فيرضين عنه أشد الرضا، ويعجبن به أشد الإعجاب، ولا يلقينه إلا تمنين عليه أن يعيد عليهن غناءه ذاك، وكن يسمينه "أعرابي، فيقلن له فى إلحاح: عن لنا "أعرابى".

يلغين العين ويلثغن بالراء ويقصرن الألف بينها وبين الباء. ويرتاح صاحبنا إلى إلحاحهن فيندفع فى غنائه على نحو ما يصنع بعض المنشدين فى الأذكار:

يا رب صل على الهادى   واغفر ما أنت به أعلم

أعرابى جاء إلى الهادى   معه ضب لا يتكلم

يوقع هذا الغناء على نغم مرقص، وكان الفتى لا يسمعه إلا أغرق فى ضحك متصل. وكان ربما تمنى عليه بين حين وحين أن يغنى له أعرابي، ينطقها كما ينطق بها الفتيات الفرنسيات، ولكنه فى ذلك القطار لم ينشط حتى لهذا الغناء، واستيأس منه صديقه الدرعمى، فخلى بينه وبين ما أحب من السكوت والصمت. وأعرض عنه كما كان يعرض عن متاعه، يرمقه بين حين وحين ليأمن عليه من السرقة والضياع، ولكنه لا يتحدث إليه ولا يعرض عليه شيئا، حتى إذا بلغ القطار باريس فى أول الضحى أقبل على الفتى متضاحكا وهو يقول: سننقل المتاع الصامت الهامد أولا، ثم ننقل المتاع الحى الناطق بعد ذلك!

وأسلم الأمتعة إلى الحمالين ثم أقبل على الفتى كأنه يريد أن يحمله، ولكن الفتى نهض ومضى معه كأنه لم يسكن ثلاثين ساعة كاملة.

وبعد قليل كان الفتى فى غرفة جميلة رائعة بفندق من فنادق الحى اللاتينى، ولم يكد يستقر فى غرفته حتى أصلح من شأنه، وتهيأ لاستقبال شخص طالما نازعته نفسه إلى لقائه منذ شهور، وطالما أشفق من ألا يلقاه أبدا.

ويطرق الباب طرقا رفيقا فى آخر الضحى، فإذا أذن بالدخول دخل عليه شخصان لم يكد يسمع صوت أحدهما حتى انجلى عنه حزنه، وانجاب عنه يأسه، وانصرف عنه الهم، كأنه يستأنف حياة جديدة لم يحبها من قبل. ولم لا؟ لقد بدأ منذ ذلك اليوم حياة ليس بينها وبين حياته الأولى سبب أو صلة.

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

قصة حب..

كانت حياة الفتى فى باريس حلوة مرة ويسيرة عسيرة، لم يعرف فيها سعة ولا دعة، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه قط. كانت حياته المادية شاقة، ولكنه احتمل مشقتها فى شجاعة ورضا وسماح، لم يكن مرتبه يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات، كان يدفع ثلاثيه فى اليوم الأول أو الثانى من كل شهر، ثمنا لمسكنه وطعامه وشرابه، وكان يدفع نصف الثلث الذى كان يبقى له أجرا لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصبحا وممسيا، ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذى قد رتب له ساعات بعينها فى النهار، ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسي، وكان يستبقى فضل مرتبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليومية، فأما أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأن مرتبه لم يكن يتسع له.

وأنفق السنة الأولى من حياته فى باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون. فكان سجينا أو كالسجين، لم يذكر قط أنه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها فى أيام الراحة التى كان رفاقه ينفقون فيها أيام الآحاد، ولم يذكر قط أنه اختلف إلى قهوة من قهوات الحى اللاتينى التى كان رفاقه الجادون يلمون بها بين حين وحين، وكان أكثر الطلاب المصريين يختلفون إليها أكثر مما كانوا يختلفون إلى الجامعة، وإنما كان يلزم بيته فى أيام الراحة لا يفارقه، وربما خلا إلى نفسه اليوم كله فى غرفته، إلا أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضى معه ساعة من نهار.

وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة أو تلك، ولكنه كان يرد نفسه فى يسر إلى القناعة والرضا. وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد، ولا يستطيع أن يدعو غيره إلى مرافقته، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى، ولم تكن ذكرى أبى العلاء تفارقه فى لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة. كان يذكر دائما قول أبى العلاء فى آخر كتاب من كتبه إنه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعا بغيره دائما، ويحتمل فى سبيل ذلك من غيره هذا الذى يتيح له الاستطاعة ألوانا من المشقة وفنونا من الأذى بدون أن ينكر منها شيئا؛ فهو مكره على احتمالها إكراها، وهو مخير بين أن يقبل ما يكره من

غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطرارا، ويضيع حياته فى باريس بل حياته كلها فى باريس أو غير باريس، وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التى لم يكن من معونتها بد، والتى كانت ترفق به أحيانا وتعنف به أحيانا أخرى، وربما صحبته من البيت إلى الجامعة بدون أن تلقى إليه كلمة أو يسمع لها صوتا، وإنما كانت تعطيه ذراعها وتمضى معه صامتة كأنما تجر متاعا لا ينطق ولا يفكر، حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتى إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب، وهى تقول له فى صوت خاطف: "إلى اللقاء فى ساعة كذا من النهار".

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها. فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة بحديثها المتصل أكثر مما كانت تلك تؤذيه بصمتها الملح...

على أن عجز الفتى لم يكن مقصورا على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها، وإنما كان عاما شاملا يمس الفتى فى أشد الأشياء لزوما له، فهو كان يستحى من كل شىء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشفاق عليه. وكان شرطه حين سكن فى البيت الذى أقام فيه ألا يشارك أهله فى طعامهم، وإنما يخلو إلى طعامه الذى يحب أن يحمل إليه فى غرفته حين يأتى وقته، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يخلى بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد. يحسن ذلك أحيانا ويخطئه أحيانا أخرى، وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثرا العافية، محتملا فى سبيلها ما قد يتعرض له أحيانا من ألم الجوع.

وظل الفتى على هذه الحال أشهرا، ولكن الله رفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهيئ له طعامه ويعلمه كيف يرضى منه حاجته.

واتخذ الفتى زى الأوربيين، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه، إلا شيئا واحدا لم يحسنه أعواما طوالا، وهو هذا الرباط السخيف الذى يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأنقون فيها قليلا أو كثيرا!

لم يفتح الله على صاحبنا بتعلم هذا الجزء من زيه، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معا فى مونبلييه.

فلما افترقا حار الفتى فى أمره، ولكن صديقه الدرعمى أخرجه من هذه الحيرة، واشترى له أربطة مهيأة لا تحتاج إلى عناء، وإنما تدار حول العنق فى يسر ويجمع بين طرفيها فى يسر أيضا، وقد هيئت عقدتها فليس محتاجا إلى أن يتكلف عقدها وتسويتها والتأنق القليل أو الكثير

فيها، ولكنه كان مضطرا إلى ألا يفكر مطلقا فى الملاءمة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتخذ من ثياب. وربما اتخذ منها رباطا واحدا يديره حول عنقه فى كل يوم ويمضى على ذلك الأسابيع المتصلة، وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافا بين ثوبه ورباط عنقه، وربما أعانه صديقه الدرعمى فتقدم إليه فى أن يغير هذا الرباط واختار له ما يلائم زيه مما كان عنده من هذا السخف الذى لم يفهم له معنى قط.

وكذلك عاش الفتى عامه الأول أو أكثر هذا العام، مضطربا فى هذه الحياة المادية المختلطة المعقدة من جميع نواحيها، ورما كان يجد بعض الألم فى ذلك، ولكنه كان يمر به مرا سريعا لا يقف عنده ولا يفكر فيه إلا قليلا. كان يعزيه عن ذلك إقباله على الدرس، وإحساسه الانتفاع به والتقدم فيه، وشعوره بأنه قد أخذ يفهم الفرنسية فى غير مشقة ولا عسر، ويقرأ كتب التاريخ والأدب والفلسفة، فلا يجد فى فهمها جهدا ولا عناء، قد انقطع لذلك انقطاعا تاما، فهان عليه منه ما كان صعبا، ويسر له منه ما كان عسيرا.

ولم تكن حياته العقلية أقل تعقيدا والتواء من حياته المادية، فلم يكد يختلف إلى دروس التاريخ والأدب فى السوربون حتى أحس أنه لم يكن قد هيئ لها، وأنه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغى أن تفهم وتساغ، وأن درسه الطويل فى الأزهر وفى الجامعة لم يهيئه للانتفاع بهذه الدروس.

وكانت آماله عراضا، فكان ينبغى أن يتخذ إليها أسبابها، وأول هذه الأسباب أن يعد نفسه لفهم الدروس التى تلقى فى الجامعة، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ فى أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعوام الطوال فى درسه بمدارسهم الثانوية. فليس له بد إذن من أن يكون تلميذا إذا أوى إلى بيته، وطالبا جامعيا إذا اختلف إلى دروس السوربون.

وما أسرع ما نظر فى برنامج المدارس الثانوية الفرنسية، واستخلص منه ما يحتاج إليه، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وهذه الخلاصات الموجزة التى كانت تلقى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبية الأوربية قديمها وحديثها. قد أقبل على ذلك كله فى عزم لا يعرف الضعف، وتصميم لا يعرف التردد ولا الفتور. واستطاع فى وقت قصير أن يحصل من هذا كله ما يحصله التلميذ الذى كان يتقدم إلى الشهادة الثانوية مطمئنا إلى أن الممتحنين لن يردوه عن هذه الشهادة خزيان أسفا.

واستقامت له دروسه فى السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون، واختار لنفسه أستاذا من أساتذة المدارس الثانوية يعلمه اللغة الفرنسية تعليما

منظما، فلم يكن يكفيه أن يفهم إذا سمع، وأن يفهم الناس عنه إذا تحدث إليهم، وإنما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرؤها.

وكان يقدر أن الأساتذة فى السوربون، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب. فلم يكن له بد إذن من أن يتهيأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء. وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلابهم إذا كتبوا لهم الواجبات فصروا فى بعض نواحيها! وكان الأساتذة يقرءون بعض هذه الواجبات، يختارون من بينها للقراءة أشدها تعرضا للنقد، ثم يأخذون فى هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون. وكانت سخريتهم بالمقصرين تضحك الزملاء وتخرجهم أحيانا عن أطوارهم.

فَكرِه الفتى أن يتعرض لبعض هذه السخرية، ولكنه تعرض ذات يوم لشر منها. كلفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسية فيمن كلف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبية فى فرنسا بعد سقوط نابليون، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع فى الكتب التى نبه إليها الأستاذ، وفكر فيه كما استطاع أيضا. ثم كتب عنه ما أتيح له أن يكتب، وقدمه إلى الأستاذ فى اليوم الموعود. وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدم إليه من الواجبات ناقدا ساخرا منددا متندرا موبخا بعض الطلاب أحيانا، حتى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقبا بهذه الجملة المرة التى لم ينسها قط: "سطحى لا يستحق النقد". وكان لهذه الكلمة وقع لاذع فى نفس الفتى أمضه بقية يومه. وأقض مضجعه حين أقبل الليل، وأشعره بأنه لم يتهيأ بعد كما ينبغى ليكون طالبا فى السوربون، فألح فى درس الفرنسية، وكلف نفسه فى هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس. وأعرض عن المشاركة فى كتابة الواجبات حتى تتم له أداة هذه الكتابة وهى اللغة الفرنسية.

وبينما كان الفتى يمتحن بأثقال هذه الحياة المادية والعقلية العسيرة، مجاهدا ما استطاع الجهاد، مروعا بين حين وحين بهذا اليأس الذى كان يتراءى له من وقت إلى وقت فيشقيه ويضنيه، فتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدر أنه سيفتح له فى يوم من الأيام. ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذى كان نعيمه الوحيد فى حياته الشاقة المظلمة، فأقبل يعودها وجلس يتحدث إليها، ثم لم يدر كيف التوى به الحديث، ولكنه سمع نفسه يلقى إليها فى صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي: أنه يحبها.

ثم سمعها تجيبه بأنها هى لا تحبه.

قال: وأى بأس بذلك؟

obeikandl.com

إنه لا يريد لحبه صدى ولا جوابا وإنما يحبها وحسب.

فلم تجبه، وغيرت مجرى الحديث، وانصرف عنها بعد ساعة، وقد استقر فى نفسه أن حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقا جديدة.

وليس من شك فى أن نفسه كانت قد تعلقت بذلك الصوت العذب ثم بصاحبته منذ وقت طويل.. وإلا فما جزعه حين اضطر إلى العودة إلى مصر؟. وما ابتهاجه بهذه الرسائل التى كانت تصل إليه؟.. وما شوقه العنيف إلى العودة إلى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت؟.. وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه فى نابولي؟.. وما إلحاحه على صاحبه الدرعمى فى أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرة ومرة حتى أمله؟... ثم ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت فى باريس؟.. وما نزوله فى بيته ذاك الذى كان يسمع فيه هذا الصوت يتردد فى كل ساعة من ساعات النهار، ويلقى فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتكلف لذلك جهدا أو سعيا أو انتظارا؟. وما سعادته بأنه كان يقيم فى هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذى كان يلقى عليه تحية الصباح حين يخرج من غرفته، ذاهبا إلى السوربون ويلقى عليه تحية المساء، حين يتقدم الليل ويأوى أهل البيت إلى مضاجعهم. ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب الفرنسى؟

ولكن حبه كان يستحيى حتى من نفسه فينكرها، وكان الفتى يخفى شعوره ذاك فى أبعد ما يمكن أن يستقر فى أعماق ضميره، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه، وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور وأن مثل هذا الشعور لم يخلق له.. وأين هو من الحب؟ وأين الحب منه؟

إنما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الأعلى ذلك الذى وقف حياته منذ قرون طوال فى دار من دور المعرة على الدرس ممعنا فيه، غير معنى إلا به، محرما. على نفسه ما أباح الله للناس من طيبات الحياة.

كان الفتى يطوى نفسه على شعوره ذاك يائسا منه ومن عواقبه، راضيا بما يتاح له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبته حين يتاح له الحديث إليها، واثقا بأن هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعيم.. غير طامع فى أكثر منه.. وكان واجدا على الحياة والظروف لأنها تحول بينه وبين أكثر منه.

ولكن العلة الطارئة التى ألمت بصاحبته، والصوت العذب الذى أدركه الضعف وشاع فيه الفتور، والإشفاق من الألم والجهد، على ما كان يكره له أن يحس الألم أو يحمل ثقل الجهد، كل ذلك ملك عليه أمره، وملأ عليه قلبه، وأنساه تحفظه وتحرجه، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التى أنكرها. وليس غريبا بعد ذلك أنه لم يجد حزنا ولا شقاء ولم يحس لوعة ولا ألما حين بلغ

مسمعه الرد على كلمته تلك مؤئسا مقنطا. فهو لم يكن ينتظر إلا اليأس والقنوط، قد وطن نفسه عليهما وعزى نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من الدرس والتحصيل.

وهو قد انصرف عن صاحبته فى ذلك اليوم راضيا عن نفسه ساخطا عليها، راضيا عنها لأنها قالت ما لم يكن بد من أن يقال.

ساخطا عليها لأنها عرضته بهذه الكلمة لشر عظيم، فهى قد عرضته لإشفاق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به. ومن يدرى لعلها تريد أن تصرفه عنها صرفا، وأن تلقى بينها وبينه حجابا يقطع تلك الأسباب العذاب التى كانت تتيح لهما اللقاء والاستمتاع العقلى والشعورى بما كانا يقرأان معا من آيات الأدب الفرنسى.

ومن يدرى لعل هذه الكلمة التى ألقاها فى غير تدبر وعن غير إرادة أن ترده إلى تلك الظلمة المظلمة التى ظن أنه قد خرج منها، وأن تضطره فى يوم قريب أو بعيد إلى أن يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكنا آخر لا يسمع فيه ذلك الصوت، ولا يلقى فيه ذلك الشخص، ولا يجد فيه شعور الرضا والنعيم.. وإنما يجد فيه شعورا آخر كله سخط مر وحزن ممض وألم مفسد للحياة.

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضا أياما لم يكد ينتفع فيها بقراءة أو درس، ولم يكد يذوق فيها للحياة طعما.

ولكنه يلقى صاحبته بعد أن انجلت عنها غمرة العلة، فإذا هى كعهده بها لم تتغير، لم تزدد إقبالا عليه، ولم يجد منها إعراضا عنه ولا نفورا منه، وإنما هى تلقاه كما تعودت أن تلقاه رفيقة به عطوفا عليه، وتقرأ له كما تعودت أن تقرأ له، وتبين له ما يشكل عليه فى أثناء القراءة، كما تعودت أن تفعل من قبل، فيرده ذلك إلى شىء من الأمن، ثم إلى شىء من الدعة وراحة البال. وتنقضى أيام. وإذا ذلك الشعور الخفى العميق الذى ظهر فجأة فى ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد إلى مستقره ذاك من أعماق الضمير، يظهر مرة أخرى، ولكن فى تحفظ وتردد وأناة، لا يتحدث إلى الفتاة بشىء، ولا يتحدث إلى الفتى بشيء حين يلقاها، وإنما يكمن فى مستقره من أعماق الضمير.

حتى إذا تقدم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه، وهم أن يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه، وذاد النوم عن صاحبه، وجعل يسامره حتى يوشك الصبح أن يسفر، ثم يعود إلى مكمنه ذاك، ويسلم الفتى إلى نوم قصير.

ولم تلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر، وأن يلحظها أهل البيت، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب، وهم يسألونه عن أمره فيلتوى بالجواب، وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون، وإنما يزعم لهم أن ليس به بأس.

وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضر. وتسأله الفتاة ذات يوم. وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرأان. فيريد أن يلتوى بالجواب، فتلح عليه، وإذا هو ينبئها مريدا أو غير مريد بأمره كله.

فتسمع له، ثم تسكت عنه، ثم تأخذ فى القراءة حتى إذا أتمتها وهمت أن تنصرف قالت له فى رفق: وإذن فماذا تريد؟

قال الفتى: لا أريد شيئا.

قالت: فإنى قد فكرت فيما أنبأتنى به، وأطلت فيه التفكير، ولم أنته بعد إلى شىء، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفترق، فاصبر حتى إذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل. فإذا قرأت فى بعض رسائلى أنى أدعوك أن تنفق معنا بقية الصيف فاعلم أنى قد أجبتك إلى ما تريد، وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضى الصيف فاعلم أنها الصداقة الصادقة بينك وبينى ليس غير.

ولم يسعد الفتى بشىء قط كما سعد بهذا الحديث. وكانت آية سعادته أنه أطرق ولم يقل شيئا.

وأقبل الصيف وكان الافتراق. ذهبت هى إلى قرية فى أقصى الجنوب.. وأقام هو فى باريس. واتصلت بينهما الرسائل. ولكنها قبل أن تفارقه كلفت زميلة لها أن تكون هى الكاتبة القارئة لرسائلهما حتى لا يطلع على هذه الرسائل زميل من زملائه.

واتصل الفراق شهرا.. ولكن رسالة تصل إليه فى آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضى معها ومع أسرتها بقية الصيف... وإذن فقد تحقق أمله، أو كاد أن يتحقق، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنه سيترك باريس إلى حيث يقضى الصيف مع تلك الأسرة وهم يصدونه عن ذلك مشفقين عليه.

ولكنه مصر على أن ما أراد، فيصحبه صديقه الدرعمى ذات مساء إلى حيث يضعه فى القطار، ويوصى به بعض من فيه.. وينصرف عنه ويدعه وحيدا. وينفق الفتى ليلا فى القطار، لا يدرى أقصر أم طال، لأنه لم يفكر فى أثنائه إلا فى هذا اللقاء الذى سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنا فى رفق وعطف وحنان، ويشعر بأنه منذ اليوم سيخلق خلقا جديدا..

الفصل الخامس عشر

المرأة التى أبصرت بعينيها!

واستأنف الفتى حياة جديدة، بأوسع معانى هذه الكلمة وأعمقها! كان يرى نفسه فى كلمة أبى العلاء حين قال إنه أنسى الولادة، وحشى الغريزة.

كان يرى نفسه إنسانا من الناس ولد كما يولدون، وعاش كما يعيشون مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم. ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد، ولم يكن يطمئن إلى شيء، قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن، وباطنه من قبله السخط والخوف والقلق واضطراب النفس، فى صحراء موحشة لا تحدها الحدود، ولا تقوم فيها الأعلام، ولا يتبين فيها طريقه التى يمكن أن يسلكها، وغايته التى يمكن أن ينتهى إليها.

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتخفف قليلا قليلا قليلا من غريزته تلك الوحشية القلقة، ويحس شيئا من الأنس الرفيق إلى بعض الناس، ثم يحس هذا الأنس يقوى فى نفسه من يوم إلى يوم، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضا.

كان يرى نفسه غريبا أينما كان وحيثما حل، لا يكاد يفرق فى ذلك بين وطنه الذى نشأ فيه، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التى كان يلم بها، لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذى ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطا به، يأخذه من جميع أقطاره فى كل مكان، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم، ويحس بعض حركاتهم، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ إلى ما وراء هذه الأصوات التى كان يسمعها والحركات التى كان يحسها.

كان غريبا فى وطنه، وكان غريبا فى فرنسا، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تغنى عنه شيئا.

وكان الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها، ولا يحقق من أمرها شيئا، كأنما أغلق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه. كان ينكر الناس وينكر الأشياء. وكان كثيرا ما ينكر نفسه ويشك فى وجوده!

كانت حياته شيئا ضئيلا نحيلا رقيقا لا يكاد يبلغ نفسه. وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذى كان يحسه مفكرا مضطربا فى ضروب من النشاط ما هو؟ وما عسى أن يكون؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتا يقصر أو يطول، فإذا ثابت إليها أو ثابت

obeikandl.com

إليه أشفق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون. وتساءل أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما يجد، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس؟!

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه. وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصغى لما كان يقرأ عليه. فأخذ كل هذا ينجاب عنه وأخذ يدخل فى الحياة كأنه لم يعرفها من قبل، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذى أخرجه من عزلته تلك المنكرة. فألغى فى رفق وفى جهد متصل أيضا ما كان مضروبا بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار!

كان يحدثه عن الناس فيلقى فى روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم.

وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب.

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نورا، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال، وعن الأنهار حين تجرى عنيفة والجدوال حين تسعى رشيقة، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء.

فكان يخيل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه، ولم تكن غريبة بالقياس إليه، كأنه قد عرفها فى الزمان الأول البعيد، ثم نسيها دهرا طويلا، فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها.

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره، وأخذ ينجلى عنه الشعور بالغربة، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة. وليس من شك فى أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه فى غير تكثر ولا غلو حين قال فى بعض ما كتب إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة وبؤسه نعيما وظلمته نورا.

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتيان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى من تلك الحياة الهائمة الناعمة التى تخلص من المشقة وتتخفف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم فى كل مذهب.

وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه، فوقت الفتى فى فرنسا محدود، وعليه واجبات يجب أن تؤدى، وله مهمة يجب أن تتم، وهو مسئول عن هذا كله أمام جامعة فى مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوربا ليطلبوا العلم فيها.

openkandil.com

ولها الحق كل الحق فى ذلك، فهى إنما ترسلهم إلى أوربا ليتعلموا لا ليحبوا، وليجدوا فى طلب العلم لا ليتعلقوا بأسباب الخيال.

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك فى أقصى الجنوب الفرنسي، وما جاء بعدها من الشهور فى باريس، فرضى عن صاحبته وعن نفسه رضا لا تشوبه شائبة من سخط أو إنكار.

وانظر إلى فتاة وفتى فى أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار فى درس اللاتينية حين يصبحان، وفى قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى.

فإذا جاء وقت الغداء ألما بالمائدة فأصابا شيئا من طعام. ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأا.

فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسى فقرأا منه ما شاء الله أن يقرأا كذلك. لا ينصرفان عن القراءة إلا ريثما يخرجان للتروض خارج القرية التى يعشيان فيها. ينفقان فى تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعودان إلى المائدة فيصيبان شيئا من طعام ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب.

حتى إذا تقدم الليل شيئا تفرقت الجماعة، وأوى كل واحد منها إلى غرفته، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب، وينعم بحاضره السعيد، ويفكر فى مستقبله المجهول.

ينفق فى ذلك أكثر الليل مؤرقا لا يكره الأرق ولا يدعو النوم. ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل. فإذا أسفر له الصبح استقبل يومه آخذا فى الدرس كما فعل من أمس.

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفا إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي، خاليا إلى قارئته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسية يوما وأستاذ اللاتينية يوما آخر، مقدرا عسر المهمة التى تكلفها وبعد الغاية التى يسعى إليها.

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم لدرجة الدكتوراه بعد ذلك، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلا.. كانت تكلفهم إتقان الفرنسية أولا ليؤدوا الامتحان التحريرى فيما يدرسون من العلم، وليؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون، يكتبون ما يردون على كتابته فى لغة فرنسية مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ، وكانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحانا تحريريا كذلك.

obeikandi.com

ولم تكن اللاتينية تدرس فى مصر لا فى المدار الثانوية ولا فى المدارس العالية.

فكان المصريون يرون أنهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين فى هذه اللغة التى لم يسمعوا بها قبل وصولهم إلى فرنسا، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين فى مدارسهم الثانوية، ثم يدرسونها فى الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس.

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إعراضا لا تكلف فيه، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التى لا سبيل إليها من غير هذه اللغة.

وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة، ويقتحموا هذه العقبة، ويدرسوا اللغة اللاتينية، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء. فأما أحدهم فقد جد وكد وتقدم للامتحان فأخفق، ثم أخذ يستعد ليؤدى الامتحان فى العام المقبل. ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك. أدركته العلة فاضطرب أمره، واختلط عقله، ورد إلى مصر فأنفق فيها أياما كئيبة يائسة، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة.

وأما الآخر فكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربونى.

وقد جد وكد وتقدم للامتحان مرة ومرة، ولكن عقدة اللاتينية أدركته، فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينى الذى يجب أن يترجمه إلى الفرنسية ألقى عليه نظرة سريعة. ثم طواه وقدم إلى الممتحنين صفحة بيضاء لم يمسها خطأ أو صواب. وانصرف ضاحكا يتمثل بيت لاتينى قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يأسا ولا قنوطا، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتينى فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى الممتحنين صحفا أتاحت له الفوز والنجح.

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميلين، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد. وما يلقيان من إخفاق، فلم يفل ذلك من عزمه، وإنما مضى فى درس اللاتينية فى بيته وفى السوربون مصمما على أن يظفر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب.

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرتها، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردد طويل، وقبلتها الأسرة بعد امتناع وإباء. ولكن صاحبنا لم ينس شيئا واحدا، وهو أنه قط أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى أوربا ذلك العهد الذى كان يعطيه أعضاء البعثة جميعا قبل سفرهم ألا يتزوج فى أثناء إقامته فى الخارج طالبا للعلم.

وهو لم ينقض هذا العهد لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج. فليس له بد إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذى أعطاه لها. وقد أزمع أن يستأذنها، وكتب إليها فى ذلك. ولكنه كان يطيل التفكير فى عواقب هذا الكتاب، كان يرجح ألا تأذن له الجامعة، وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما يكون من أمره إن رفضت الجامعة الإذن له فيما يريد.

وكان ذلك ربما نغص عليه حياته من حين إلى حين. ولكن الجامعة كان أرأف به وأرحم له مما قدر. فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر.

أذنت له الجامعة إذن، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى يظفر بدرجة الليسانس هذه التى لم يظفر بها مصر بعد، وحتى يشعر الجامعة بأنه صاحب جد ونشاط وإنتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل.

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن فى ذلك العام يتهيأ لامتحان الليسانس وحده، وإنما كان فى الوقت نفسه يعد رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جدا وكدا ونشاطا، حتى كان العام الأول لخطبته غريبا حقا، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشده مشقة.

ولم ينس الفتى قط ولم تنس صاحبته، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين فى أيام الآحاد من باريس يطلبان النزهة والتروض، فلم يخرجا قط وحدهما وإنما صحبهما دائما كتاب من هذه الكتب الثقال التى ترهق القارئين فيها من أمرهم عسرا؛ والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرون ما فيها من العسر الذى يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التى تحيط بباريس، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان فى هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التى لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلبيهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد.

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان، ثم دفع إليه فى شهر يونيو فلم يتردد ولم يتلكأ، وإنما أقدم فى أى عناد. لم يكن واثقا بنفسه ولا مطمئنا إلى نتيجة هذه المغامرة التى يقدم عليها، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح له النجح فرمية من غير رام، وإن كتب على الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون!

وكان مزمعا إن ظفر بالنجح أن يبرق به إلى الجامعة، وإن كتب عليه الإخفاق أن يكتمه ويجعله سرا بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتم الإخفاق فى الامتحان، ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقا به مشجعين له عاطفين عليه.

وقد أتيح له النجح.. وكان الأستاذ الدكتور صبرى السوربونى هو الذى أقبل ذات مساء فرحا يكاد يخرجه الفرح عن طوره، مكدودا يكاد يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون

وبين بيت الفتى، ولشدة ما أسرع فى صعود السلم إلى بيت الفتى فى الطبقة السادسة. فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه ولم يرد أن يستريح.

وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان، ولم يكد ينظر فى النص اللاتينى حتى طواه وقد صحفه البيضاء وانصرف ضاحكا متمثلا بيته اللاتينى ذاك الذى يصور اليأس والقنوط، فكان رائعا حقا أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسرة أملك له وأشد استئثارا به من إخفاقه هو فى الامتحان!.

وألقى نبأ النجح إلى الفتى، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته إلى السوربون وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها فى بيت موليير تكافئ بذلك صديقها وخطيبتها على هذا النجح الذى لم يكن مرتقبا.

وأصبح الفتى من غده فأبرق إلى الجامعة، ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئه وترسل إليه مكافأة قدرها عشرون جنيها.

فى ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجها قبل رحلة الصيف إلى الجنوب.

obeikandi.com

الفصل السادس عشر

طلبت تأجيل الامتحان للزواج!

وكان أمر الفتى فى عامه الدراسى ذاك عجبا كله، فهو لم يتهيأ لامتحان الليسانس وحده على ما فيه من عسر ومشقة، وإنما جعل يعد رسالته للدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، فقرأ لذلك ما شاء الله أن يقرأ فى اللغتين العربية والفرنسية، وترجمته له نصوص أخرى من لغات أوربية مختلفة، ثم أخذ فى إملاء رسالته، يقول هو وتكتب صاحبته، وتقوم فى أثناء ذلك ما يعوج من لغته الفرنسية. ولا يكاد يفرغ من إملاء فصل من فصول هذه الرسالة حتى يعيد قراءته ثم يعرضه على أستاذه المستشرق الفرنسى كازانوفا، فإذا أقره أخذ فى إملاء الفصل الذى يليه. ولم تكن الجامعة قد فرضت عليه هذه الرسالة، بل لم يكن بين هذه الرسالة وبين برنامجه الدراسى سبب. فهو قد أرسل ليدرس التاريخ، وكلف الحصول على درجة الليسانس، وتطوع هو بهذه الرسالة لأنه سمع دروس الاجتماع التى كان يلقيها الأستاذ دوركيم، فشغف بهذا العلم أى شغف، وأراد أن تكون له مشاركة فيه، وأن يشرف الأستاذ على هذه المشاركة. فاتفق معه على موضوع الرسالة، وعلى أن يكون هو مشرفا عليها من الناحية الفلسفية، وأن يشاركه فى الإشراف مستشرق يحسن العلم بالشئون العربية والإسلامية فكان كل فصل من هذه الرسالة يقرؤه أستاذان، يقرؤه الأستاذ المستشرق أولا ثم يقرؤه الأستاذ دوركيم بعد ذلك.

ولما استقام أمر هذه الرسالة للفتى كتب إلى الجامعة ينبئها بما صمم عليه، وبأن هذا لن يغير من برنامجه المرسوم شيئا، بل ينبئها بأنه يزمع أن يضيف إلى هذا البرنامج المرسوم شيئا آخر: يريد . إن ظفر بالليسانس . أن يظفر بالإجازة التى تليه، وهى دبلوم الدراسات العليا. واستأذن الجامعة فى أن يتهيأ لنيل درجة دكتوراه الدولة فى التاريخ، على أن ذلك يستلزم أن تمتد إقامته فى أوربا أربعة أعوام بعد حصوله على الليسانس والدبلوم.

فكتبت إليه الجامعة تأذن له بنيل الدبلوم إن استطاع بعد الليسانس، وتعفيه من دكتوراه الدولة فى التاريخ، لأنها تطيل إقامته فى أوربا وتكلف الجامعة من النفقات أكثر مما تطيق.

ثم أذنت له بتقديم رسالته عن ابن خلدون لنيل دكتوراه الجامعة، وذكرته بالعهد الذى قطعه على نفسه قبل أن يسافر من مصر وهو ألا يقدم رسالة إلى جامعة أجنبية مهما يكن موضوعها إلا بعد أن تقرأها الجامعة المصرية وتأذن فى تقديمها. وكان الصديق الكريم الدكتور منصور فهمى هو الذى اضطر الجامعة إلى أن تأخذ طلابها فى أوربا بأن يعطوا على أنفسهم هذا العهد.

والناس لم ينسوا بعد ما أثارت رسالة الدكتور منصور التى حصل بها على الدكتوراه من ضجيج وعجيج أثارا سخط الهيئات الرسمية أولا، وسخط الرأى العام بعد ذلك، واضطر الصديق الكريم إلى أن ينأى عن مصر قريبا من عام، ولا يعود إليها إلا حين اضطرته الحرب إلى أن يعود. وحيل بينه وبين التعليم فى الجامعة أعواما، حتى إذا كانت الحركة المصرية سنة تسع عشرة وتسعمائة ألف، وما نشأ عنها من الأحداث ومن تحرر العقول، أذن له بما كان ينبغى أن يؤذن له فيه منذ أتم درسه فى فرنسا. وكان ثروت باشا رحمه الله هو الذى أذن له فى ذلك.

ولم ينس الفتى مساء يوم من الأيام جلس فيه بين زملائه إلى بعض الأساتذة فى الجامعة حين كان طالبا، وإنه لمصغ إلى الأستاذ وإذا يد تمسه مسا رفيقا ثم تحاول إقامته مكانه، فيلتفت فينبئه صوت بأن الذى يريد أن يقيمه هو علو باشا، فيستجيب الفتى لهذه اليد وهو يشفق فى نفسه من بعض الشر. فهو قد أقيم مرة من درسه فى الأزهر مع صاحبين له ليقدما للمحاكمة أمام شيخه الأكبر الشيخ حسونة رحمه الله. وقد سأل الفتى إلى من سيقدم، وفيم يمكن أن يحاكم هذه المرة. ورأى الفتى نفسه قد أجلس على كرسى وقيل له إنك أمام مجلس إدارة الجامعة وإن المجلس يريد أن يسألك عن بعض الأمر. وإذا صوت رقيق يتحدث إليه فى رفق فينبئه أولا باسمه عبد الخالق ثروت، ويسأله بعد ذلك عن حكم الدين فى أشياء تليت عليه من رسالة لطالب من طلاب الجامعة فى أوربا.

قال الفتى: فإنه لا يملك الإفتاء فى أمور الدين.

قال محدثه: فإنا نريد أن نعرف رأيك.

قال الفتى وهو يبسم فى شيء من غضب ساخر: كنت أظن أننى فى الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم. فإذا أنا أرانى فى الأزهر لا أسأل عن رأى نفس وإنما أستفتى فى رأى غيرى من الناس.

قال صوت غليظ: رده يا علوى باشا إلى درسه فلن نأخذ منه شيئا.

ورد الفتى إلى درسه لم يصحبه فى عودته علوى باشا وإنما صحبه خادم من خدم الجامعة.

ومنذ أثار الدكتور منصور ذلك الضجيج أقامت الجامعة نفسها رقيبا على رسائل طلابها، وأخذت عليهم العهد ألا يقدموا رسائلهم إلى الجامعات الأجنبية حتى تأذن لهم هى فى ذلك بعد أن تقرأ الرسائل وتقرها. فلما استأذنها الفتى فى تقديم رسالة عن ابن خلدون ذكرته بعهده ذاك، فوفى به وأرسل نسخة من الرسالة بعد أن أتمها، وأحالها مجلس الإدارة إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد فقرأها ورضى عنها وأذنت الجامعة فى تقديمها إلى السوربون.

ولم ينقض شهر يوليو من ذلك العام حتى كان الفتى قد نجح فى الليسانس من جهة، وأذنت له السوربون فى طبع رسالته توطئة لمناقشتها بعد الصيف.

وقد تخفف الفتى من عبئين ثقيلين.. عبء الليسانس وما فيه من امتحان اللغة اللاتينية، وعبء الرسالة وما فيها من رقابة الجامعة والإذن فى تقديمها. على أن فوزه بالليسانس لم يكن كاملا، فهو قد نجح فى الامتحان التحريرى نجاحا حسنا، ولكنه كان قد شق على نفسه بالاستعداد لهذا الامتحان وكتابة الرسالة وهو بعد ذلك مشغول متصل التفكير فى زواجه الذى أذنت به الجامعة والذى كان يجب أن يتم فى ذلك الصيف.

فخادع الفتى نفسه شيئا، وقرر أن يرجئ الامتحان الشفهى إلى الدور الثانى فى أول العام الدراسي، وما هى إلا أن يعرض نفسه على طبيب فيشهد كتابة بأنه مكدود الأعصاب محتاج إلى الراحة، ويقدم هذه الشهادة إلى السوربون فتؤجل ما بقى من امتحانه إلى شهر نوفمبر، ويفرغ الفتى لنفسه وخطيبته، وما كان يعنيهما من أمر الزواج.

فإذا كان اليوم التاسع من أغسطس من ذلك العام، أصبحا زوجين حين انتصف النهار، وتركا باريس إلى الجنوب حين أقبل الليل. ولم يفرغا مع ذلك لحياتهما الجديدة فى أثناء الصيف، وإنما استقرا فى مدينة هادئة من مدن الجنوب، وأقبلا فور استقرارهما على ما لم يكن بد من الإقبال عليه وهو الاستعداد للامتحان الذى يجب أن يؤدى بعد شهرين.

وكان الاستعداد عسيرا حقا. فلم يكن بد لطالب الليسانس فى التاريخ من أن يكون مستعدا بعد نجاحه فى الامتحان التحريرى لأن يسأل فيما يريد الأساتذة أن يسألوه فيه من تاريخ العصور القديمة وتاريخ القرون الوسطى والتاريخ الحديث والتاريخ المعاصر والجغرافيا والفلسفة ولغة أوربية غير اللغة الفرنسية. وحسبك بهذا كله عبئا ثقيلا وعناء طويلا. وحسبك به أو بالاستعداد له نعيما يلائم حياة عروسين قد أتما زواجهما منذ أيام!

وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ولا ينفران منها، وغنما يصبحان فى التاريخ ويمسيان فى الجغرافيا ويلمان بالإنجليزية بين ذلك، ويتركان أمر الفلسفة إل الله وإلى ذاكرة الفتى، وما يمكن أن يكون قد استقر فيها مما سمع فى السوربون أثناء العام.

وينقضى الصيف ويعود الزوجان إلى باريس، ويقبل صاحبنا على الامتحان مشفقا منه أعظم الإشفاق، مروعا به أشد الروع لا يخاف التاريخ القديم، وإنما يخاف أشد الخوف أساتذة التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر، ولا يكاد يذكر الجغرافيا حتى يجن جنونه، فقد كان واثقا بأنه مخفق فيها من غير شك. وقد كتب عليه أن يرضى فى يوم من أيام الامتحان كل الرضا مصبحا وأن يسخط فيه كل السخط ممسيا.

وأقبل من ضحى ذلك اليوم على أستاذ تاريخ القرون الوسطى وكان من أعظم أساتذة السوربون قدرا، وهو الأستاذ شارلى ديل. فإذا الأستاذ قد كتب على أوراق صغيرة أسئلة كثيرة وضعها أمامه، وجعل الطلاب كلما أقبل واحد منهم على الأستاذ يرمقونه ويرقبون ما يسعفه به الحظ. ويقبل صاحبنا ترافقه زوجه، فإذا أخذت ورقة ودفعتها إلى الأستاذ نظر فيها ثم ابتسم ثم قال فى صوت عذب: لقد أسعدك الحظ بمرافقة هذه الآنسة. حدثنى إذن عن الإمبراطورية العربية أيام بنى أمية، وما أرى إلا أنك تعرفها خيرا مما أعرفها.

واندفع الفتى فى حديثه لا يلوى على شىء حتى وقفه الأستاذ قائلا: حسبك فقد ظفرت بالدرجة العليا.

فى ذلك اليوم لم يعد الزوجان إلى البيت ليصيبا غداءهما، وإنما ألح الفتى على صاحبته فى أن يرفها عن نفسيهما بتناول الغداء فى مطعم من مطاعم الحى اللاتينى، يجدان فيه من لين الطعام ما لم يكن مقدرا أن يجدان إن عادا إلى البيت. وكانت صاحبته تكره له أن يسرف فيما يبقى له من مرتبه بعد أداء ما عليه فيه من الحق، فامتنعت عليه وألحت فى الامتناع، ولكنه ما زال بها حتى استجاب له. فأصابا فى ذلك اليوم غداء قلما كانا يصيبا مثله فى سائر أيامهما.

وعادا بعد ذلك إلى السوربون، وإن قلب الفتى ليخفق فرقا وقلقا؛ وكيف لا وهو مقبل على امتحان الجغرافيا بعد قليل؟ وكان قد قدر فى نفسه أن الأستاذ الذى سيمتحنه لن يراق مقبلا عليه حتى يرفق به ويعرف أن مثله لا ينبغى أن يسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة بدون أن يحتاج إلى الإبصار. يسأله فى الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ولا يسأله فى الجغرافيا الطبيعية مثلا. ولكن الأستاذ يدعوه فيسعى إليه ويجلس بين يديه، ويقول الأستاذ فى هذه المداعبة الرفيقة التى يتكلفها الممتحنون عادة: مسيو حسين، صف لى مجرى نهر الرون.

ويسمع الفتى هذا السؤال فيسرع إلى الوجوم، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعا. وإذا هو يرفض الإجابة عن هذا السؤال فى صوت لا تردد فيه ولا اضطراب.

قال الأستاذ متلطفا: فإن من الحق عليك أن تجيب حين تسأل.

قال الفتى: ولكنى لن أجيب.

قال الأستاذ: فقد اكتفيت.

ودعا طالبا آخر.

فانصرف صاحبنا محزونا مدحورا، مستيقنا أنه قد أخفق فى الامتحان، وأن نجحه فى أول الصيف قد ذهب هباء، مشفقا فى الوقت نفسه على صاحبته من هذا الحزن الذى سيسعى

إليها من غير شق. ولكن صاحبته تخرج به من هذه الغرفة مترفقة به قائله له فى ابتسامة عذبة: وما رأيك فى فنجان من القهوة تتهيأ به للقاء أستاذ الفلسفة! وقال: وفيم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء؟

قالت متضاحكة: لا عليك. فقد كان هذا الممتحن غليظ الطبع قليل الحظ من الذوق.

وما زالت به حتى سقته القهوة. ثم عادت به إلى السوربون، فلقى أستاذ الفلسفة وسمع منه وقال له غير محقق فى نفسه شيئا مما سمع أو مما قال.

وراحا إلى بيتهما وهو يضمر اليأس ويظهره. وهى تظهر الأمل، والله يعلم ما كانت تضمر.

وتكلف صاحبنا أن يشغل نفسه عن التفكير فى الامتحان بالتفكير فى مناقشة الرسالة التى تم طبعها وقدمت إلى السوربون، والتى سيحدد لمناقشتها فيما كان يقدر موعد قريب.

ولم تتحدث إليه صاحبته فى أمر هذا الامتحان، وإنما جعلت تتحدث إليه فى أشياء كثيرة ليس بينها وبين السوربون وعنائها صلة، ثم تقبل عليه ذات يوم فلا تكلمه ولا تلقى إليه تحيتها وإنما تقبله ثم تهمس فى أذنه: لقد نجحت!

ولم يصدق الفتى ما سمع حتى أنبأته بأنها عائدة من السوربون حيث أعلنت أسماء الناجحين وفيها اسمه.

وعلم الفتى بعد ذلك أن الأستاذ ريمونجون أستاذ الجغرافيا لم يكن غليظ الطبع ولا قليل الحظ من الذوق، فلم يمنحه الصفر الذى كان يستحقه، وإنما منحه درجتين اثنتين ليعصمه من الإخفاق إن أتيح له النجح فى غير الجغرافيا من مواد الامتحان.

وتريد الظروف بعد سنين أن يعقد فى مصر مؤتمر للجغرافيا، وأن يكون هذا الأستاذ من الذين مثلوا وطنهم فى هذا المؤتمر، وأن يلقاه صاحبنا فى حفلة من حفلات الشاى التى تكثر حول المؤتمرات، فإذا قدم إليه صافحه وأطال النظر إليه وإلى صاحبته ثم قال متضاحكا: يخيل إلى أنى رأيتك!

قال الفتى مغرقا فى الضحك: نعم رأيتنى، وكدت تضيع على درجة الليسانس.

قال الأستاذ: الآن ذكرتك.. ولعلك راض عنى، لأنى لم أعطك الصفر الذى كنت له أهلا!

ولم يضحكا وحدهما، وإنما ضحك معهما من كان حولهما من الناس.

وكذلك خلص الفتى من مشكلات الليسانس، وأقبل على الرسالة يتهيأ لمناقشتها مستريح القلب هادئ النفس راضى الضمير، ولكنه لم يلبث أن روع بوفاة الأستاذ دوركيم المشرف الفلسفى على رسالته. وكان الفتى لأستاذه محبا وبه معجبا إعجابا شديدا يوشك أن يبلغ الفتون، فأدركه للخطب فيه حزن عميق. ولكن للحياة حقائقها وتبعاتها. وليس به لهذه الرسالة من أن تناقش، وليس بد لمناقشتها من فيلسوف متخصص فى الاجتماع.

وقد استطاعت السوربون أن تندب لمناقشة الفتى فى رسالته أستاذا من أساتذتها كان من تلاميذ الفقيد وهو الأستاذ بوجليه. وكذلك تم الاستعداد للمناقشة، ولكن الدكتوراه الجامعية فى فرنسا لا يكفى فيها أن تقدم الرسالة وأن تناقش، بل يجب أن يناقش الطالب قبل ذلك فى موضوعين يختاران له قبل اليوم الموعود ليتهيأ للخوض فيهما.

ويتصل الفتى بأساتذته الذين سيمتحنونه ليعرف منهم هذين السؤالين. فأما الأستاذ المستشرق فلم يقترح شيئا واكتفى برسالة الطالب عن ابن خلدون. وأما الأستاذ الفيلسوف فاقترح على الفتى موضوعا رآه فى أول الأمر عسيرا أشد العسر، ثم لم يلبث أن رآه يسيرا كل اليسر بعد أن عرف الموضوع الثانى الذى اقترحه أستاذ التاريخ. اقترح الأستاذ الفيلسوف: "علم الاجتماع كما يتصوره أجوست كونت"، واقترح أستاذ التاريخ .وكان من مؤرخى الرومان وهو الأستاذ جوستوف بلوك . "القضايا التى رفعت على حكام الأقاليم كما يصورها بلينوس الشاب فى رسائله".

وقال الأستاذ وهو يلقى هذا الموضوع إلى الفتى: وأريد أن أناقشك فى النصوص فلا تكتف بفهم التاريخ.

فى ذلك اليوم عاد الفتى إلى أهله يرعد من الخوف والسخط جميعا. كان يظن أنه قد فرغ من اللغة اللاتينية وعنائها، وإذا أستاذ التاريخ ذاك يرده إليها ويفرض عليه أن يدرس طائفة من رسائل ذلك الكاتب اللاتينى القديم.

وأقبل الفتى على رسائل ذلك الكاتب فقرأها كلها مترجمة إلى الفرنسية أولا. واستخر منها الرسائل التى تمس موضوعه فعاد إليها يدرسها فى نصوصها اللاتينية درسا دقيقا عميقا، لأنه كان يعرف الأستاذ، ويعلم أنه لا يجب المزاح ولا يكتفى بالقليل.

ولم يرتعد الفتى فى امتحان قط إلا فى هذا الامتحان حين أخذ الأستاذ يناقشه فى هذه الرسائل، ونس حكام الأقاليم وقضاياهم، ولم يحفل إلا بالنص اللاتينى من حيث هو نص أدبى يجب فهمه أولا وذوقه ثانيا وتحليله ونقده بعد ذلك.

ولولا فضل من شجاعة واستحياء من الرفاق ومن زوجه التى كانت تشهد الامتحان ومن سائر النظارة لاصطكت أسنانه ذعرا وهلعا. ولكنه ثبت للخطب على كل حال، وإن رأى الأساتذة والنظارة أن فرائصه ترتعد، وأنه كان شديد الاضطراب، وثابت نفسه إليه حين سكت عنه أستاذ التاريخ وأخذ أستاذ الفلسفة فى مناقشته وجرت ريح الامتحان له رخاء حتى رفعت الجلسة.

وخلت اللجنة للمداولة وعادت بعد لحظات فأعلن إليه رئيسها، وهو أستاذ التاريخ، أن الكلية ترشحه لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الممتازة ومع تهنئة اللجنة.

ولأول مرة سمع الفتى تصفيق النظارة من الفرنسيين لشخصه المتضائل الضعيف. وعاد إلى أهله جذلان فرحا، وظن أن قد حطت عنه أثقال الدراسة، وأن ما بقى له منها لن يكون شيئا ذا بال.

ولكن الأيام كشفت له عن أنه كان مغاليا فى تفاؤله بل مسرفا فى الغلو. فقد بقى عليه أن يظفر بدبلوم الدراسات العليا، وأراد حظه أن يعد رسالته لهذا الدبلوم بإشراف أستاذ التاريخ ذلك الذى أرهقه من أمره عسرا.

obeikandl.com

الفصل السابع عشر

يوم سقطت القنبلة على بيتى!

ولم يمهل صاحبنا نفسه بعد أن فرغ من امتحان الدكتوراه إلا أيام أقليلة، ثم أقبل على درس أستاذ التاريخ ذاك كما تعود أن يفعل منذ أقام فى باريس، وكان على هذا الدرس حريصا ولصاحبه محبا، بل كان إعجابه بصاحب هذا الدرس عظيما، فلما انتهى الأستاذ من درسه سعى إليه صاحبنا خزيان وجلا، وأنبأه بأنه يود لو أذن له فى أن يهيئ بإشرافه رسالة فى التاريخ القديم ينال بها دبلوم الدراسات العليا.

وقد قبل الأستاذ طلب تلميذه أحسن قبول، وضرب له موعدا بعد درس الغد ليتحدث معه فى موضوع هذه الرسالة. وانصرف الفتى راضيا مشفقا.. راضيا عن العمل مع هذا الأستاذ العظيم، مشفقا من مشقة هذا العمل. فقد كان الأستاذ معروفا . على حبه لتلاميذه . بالشدة عليهم وتكليفهم من الأعمال أشقها وأشدها عسرا ومحاسبتهم بعد ذلك حسابا لا رفق فيه.

ولقى الفتى أستاذه من الغد فقال له متضاحكا: لقد وجدت لك موضوعا قيما حقا، لأنه سيتيح لك من القراءة ما ستنعم به أحسن النعيم موقعا فى النفوس.

قال الفتى متشوقا: وما ذاك؟!

قال الأستاذ: ستدرس القضايا التى أقيمت فى روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الرومانى وغضوا من شرفه، كما صورها المؤرخ العظيم تاسيت.

وأؤكد لك أنك ستسعد بقراءة هذا المؤرخ كما لم تسعد قط بقراءة مؤرخ أو أديب.

ثم أحصى له طائفة من الكتب يجب أن يقرأها، وطائفة أخرى يجب أن يرجع إلى بعض فصول فيها، ولم يستطيع صاحبنا أن يناقش الأستاذ أو يجادله فى هذا الموضوع العسير، وإنما سمع وأطاع، وانصرف قلقا مستخذيا.

ثم فكر حين خلا إلى نفسه فى هذه الكتب التى ينبغى أن يقرأها أو يراجع فصولا فيها، فرأى أنه لا يستطيع أن يستعيرها، لأن مثله هذه الكتب لا تعار من مكتبة الجامعة لكثرة حاجة الطلاب إليها. وليس له بد إذن من شرائها، وفى شرائها المعضلة الكبرى. فثمنها لا يقل عن المرتب الذى يتقاضاه أثناء شهرين كاملين!

وكتب إلى الجامعة يستعينها على شراء هذه الكتب، فأبت عليه، وكانت الجامعة شديدة البخل على طلابها، تكرهها ظروفها المالية على ذلك إكراها. فهى لم تكن تعينهم على ما يعرض

لهم من المرض، ولا على ما يحتاجون إليه من الكتب، وإنما كانت تعطيهم مرتباتهم وأجور ما يحتاجون إليه من الدروس الخاصة إذا تبينت أن ليس لهم من هذه الدروس بد. ثم تخلى بينهم وبين حياتهم وما يصنعون بها ما يريدون، أو تصنع هى بهم ما تريد. وعلى الطلاب مع ذلك أن يثبتوا جدهم فى الدرس وتقدمهم فيه. فإن ثبت لها تقصير أو قصور فليس بد للطالب من أن يعود إلى مصر ويوفر ما تنفقه الجامعة عليه من المال.

وقد راجع صاحبنا الجامعة فى أمر هذه الكتب فأذنت له . بعد خطوب . فى أن يشتريها وينتفع بها على أن تكون ملكا للجامعة ترد إليها بعد عودته إلى مصر.

وكذلك أخذ يتهيأ لهذا الموضوع الخطير. وأى شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله لم يعرف اللاتينية إلا بأخرة، ولم يسمع فى مصر إلا دروس الأزهر فى علومه الموروثة ودروس الجامعة التى ليس بينها وبين تاريخ اليونان والرومان صلة . أى شيء أخطر بالقياس إلى مصرى مثله من العكوف على هذا المؤرخ الرومانى العظيم العسير يقرؤه ويحصى ما فيه من أخبار هذه القضايا، ثم يفهم هذه القضايا من نواحيها القانونية الخالصة، ثم يعرضها بعد ذلك عرضا واضحا مستقيما؟! لقد أحس فى نفسه شيئا من الندم على أنه لم يختر لرسالته موضوعا فى التاريخ العربى الذى يحسنه والذى لا يكلفه قراءة فى اللاتينية ولا فيما يشبه اللاتينية، ولكنه قد ورط نفسه فى هذا الموضوع، وليس له بد من أن ينفذ من مشكلاته، مهما يكلفه ذلك من جهد أو عناء.

وإنه لما بدأ فى قراءته تلك العسيرة، إذا حدث يحدث ذات ليلة فيقطع هذه القراءة فجأة، ويضطره إلى أن يترك باريس، ويفر بنفسه وبزوجه إلى جنوب فرنسا، طلبا للأمن واجتنابا للخطر. وكان ذلك حين انتصفت ليلة من ليالى فبراير أو كادت تنتصف. وكان كل شيء هادئا من حول صاحبنا، وكان قد انصرف عن القراءة وأوى إلى مضجعه، وأخذ النوم يسعى إليه أو أخذ هو يسعى إلى النوم، ولكن النذير بالغارة الجوية يوقظ أهل البيت جميعا، وصاحبنا شجاع لا يحفل بالغارة ولا يريد أن يظهر أهل البيت منه على ذعر أو شيء يشبه الذعر. فهو يأبى أن ينهض من مضجعه ساخرا من الغارة والمغيرين. وما أكثر ما سمع أهل باريس هذا النذير! وما أكثر ما اهتم له المهتمون، وسخر منه الساخرون، وانجلت غمرته عن باريس دون أن تلقى منه كيدا! فما يمنع هذه الغارة أن تكون كغيرها من سابقاتها؟ وصاحبنا معتد بنفسه معتز بشجاعته، يرى أهل البيت من حوله يتهيأون للهبوط من طابعهم السادس ليأووا إلى مخبئهم ذاك، وهو ثابت فى مضجعه لا يريم، ولكنه يسمع فجأة صوتا مروعا، وينظر فإذا هو يهبط مع الهابطين مسرعا، لا يحفل بما يمكن أن يلقاه من عقبات، ولا يثوب إلى نفسه إلا بعد أن استقر فى مجلسه من المخبأ بين اللاجئين إليه من أهل الحى، وهو مستخذ فى نفسه، ومستخذ من أهله، ولكن ماذا يصنع وقد كانت الغريزة أقوى من عقله وإرادته جميعا؟

وتنجلى الغمرة، ويأوى الناس إلى مضاجعهم، فإذا أصبحوا رأوا شرا عظيما، فقد سقطت القنابل فى الحى اللاتينى نفسه، ودمرت أبنية قريبة من الدار التى كان يسكنها صاحبنا، وهو يحس آثار هذا التدمير فى طريقه مصبحا إلى السوربون، ويسمع من أنبائه الشىء الكثير. ولم يخطر له أن فى هذا الحادث ما يضطره إلى ترك باريس والهجرة إلى الجنوب. ولكن ظروف زوجه تفرض عليه ذلك بأمر الطبيب. فيهاجر معها إلى مونبلييه مقدرين أن يقيما فيها إلى أن يصل الطفل الذى كانا ينتظرانه ثم يعودا بعد ذلك إلى باريس.

وهم صاحبنا بعد أن استقر فى مونبلييه أن يدرس الحقوق ويتخرج فى القانون، يبدأ الدرس فى فرنسا ويتمه فى مصر بعد أن يعود إليها، ولكن إعداد رسالته تلك شغله عن ذلك، وما أكثر ما لام نفسه وشق عليها فى اللوم بأنه لم يتم ما حاول من دراسة القانون! فقد ألمت به فى حياته محن وخطوب.

وكان ينظر فيرى نفسه مسئولا عن أسرة فيها صبيان بريئان لم يخاصما السلطان ولم يثيرا غضبه، وعن زوج بريئة غريبة لا شأن لها بما كان يحدث فى مصر من الأحداث، ويرى نفسه مع ذلك اضطر إلى شىء يشبه العجز عن رعاية هذه الأسرة والقيام بحقها عليه فى تلك الأيام. وكان يذكر رغبته فى درس القانون، وكان يقدر أنه لو فعل لاستطاع أن يتجنب التبطل وأن يعصم هذه الأسرة مما كانت تتعرض له من البؤس والضيق. ولكن هذا حديث لم يأت وقته بعد.

أقبل الفتى إذن على درسه، وأقبل فى الوقت نفسه على درس اللغة اليونانية، وشاركته زوجه فى هذا الدرس، فكانت حياتهما فى مونبلييه راضية حقا، فيها نعيم العقل بهذا الإمعان فى الدرس والأخذ فى كل يوم بسبب جديد من أسباب المعرفة وفيها نعيم الأمل بانتظاره هذا الطفل الذى كان يسعى إلى الحياة فى أناة ورفق. وفيها نعيم الرضا بالقليل والقناعة بالرزق الذى مهما يكن مقترا فيه فقد كان يقيم الأود ويعصم من الحاجة ويرضى الزوجين عن نفسهما، لأنهما يحسنان التدبير والاحتمال. وكان ربما تعرضا لبعض الهم حين يوشك الشهر أن ينقضي، ويوشك ما بين أيديهما من المال أن ينفد، فيثبتان لذلك فى صرامة لا تعرف اللين وشدة لا تعرف الدعة حتى تنجلى عنهما الغمرة ويعود إليهما اليسير العسير من أول الشهر إن جاز أن يوصف اليسير بأنه عسير.

وكان الفتى قد أرسل نسخا من رسالته عن ابن خلدون إلى صديق له فى مصر بقيت له بعد أن أخذت السوربون خمسين ومئة نسخة، وأخذت الجامعة عشرين نسخة، وأهدى إلى بعض الرفاق والأصدقاء عددا آخر من النسخ، وبقى له نحو مئة نسخة من هذه الرسالة، فأرسل إلى صديقه ذاك ـ رحمه الله ـ ليتصرف فيها كما يحب. ومضى على إرسال هذه النسخ وقت غير

قصير حتى نسيها الفتى، ولكنه يتلقى ذات ضحى كتابا من صديقه ذاك ومعه حوالة على أحد المصارف بمقدار من المال لا بأس به كاد يبلغ عشرين جنيها.

ما كان أسعد ذينك الزوجين بهذا الكتاب، وبما حمل إليهما من معونة، كانا فى أشد الحاجة إليها! ولا سيما أنه قد قرب مقدم الطفل المنتظر، ولابد من التهيؤ للقائه، ومن لقائه حين يقبل فى إكرام له وعناية به وحفاوة تلائم ما كانا يجدان فى مقدمه من الساعة. وكان ربما أدركهما حزن عميق يخفيه كل منهما على صاحبه رفقا به وإشفاقا عليه. فكانت هذه المعونة الطارئة منقذا لهما من هذا العذاب.

وفى يوم من أيام شهر يونيو أقبلت أمينة مع الصبح، واختلط صياحها بغناء الطير المستيقظة. فكان لهذه الموسيقى الحلوة موقع أى موقع فى قلب الزوجين أنساهما أو سلاهما عما وجدا فى ليلتهما تلك من روع وما تعرضا له من هول.

ولم تجد أمينة أبويها حزينين ولا مهتمين ولا مضيقا عليهما فى استقبال زائرهما العزيز، فقد أتاح لها ابن خلدون . رحمه الله . من السعة ما مكنهما من أن يلقيا ابنتهما كأحسن ما يكون اللقاء.

وانقضى الصيف ثقيلا طويلا يضطرب فيه الزوجان بين السعة فى أول الشهر والضيق فى آخره، ولكنهما يستعينان على السعة والضيق جميعا بتنشىء أمينة من جهة، والجد فى إعداد الرسالة ودرس اليونانية من جهة أخرى. ولم يقبل شهر سبتمبر حتى عاد الزوجان ومعهما جوهرتهما إلى باريس.

وكان صاحبنا يقدر أنه سيفرغ الفراغ كله لرسالته إذا استقر فى باريس، ليلقى أستاذه من أول العام الجامعى مستعدا للتحدث إليه بما قرأ وما فهم وما يريد أن يفعل، وليتلقى منه ما يمنحه من التوجيه والإرشاد.

ولكنه لا يكاد يبلغ باريس حتى يصرف عن الرسالة صرفًا عنيفًا، ويشغل عنها شغلا متصلا أكثر من شهرين فهذا رفيق مصرى من رفاقه فى الدرس، وصديق من أصدقائه قبل البعثة وبعدها، قد ألم به مرض عصبى خطير، وليس له فى باريس من يرعاه أو يهتم لشأنه. وقد انتقلت إدارة البعثة الجامعية من باريس إلى لندن فلم يكن بد للفتى من أن يعنى بصديقه وزميله فى الدرس، ويقوم منه مقام مدير البعثة، وهو يعرضه على الطبيب بعد الطبيب، ويكتب فى شأنه إلى مدير البعثة مرة وإلى الجامعة فى القاهرة مرة أخرى. وينفذ أمر الأطباء، فينقل صديقه من باريس إلى حيث يستطيع أن يعيش خارج المدينة فى الهواء الطلق والحياة الهادئة التى لا عجيج فيها ولا ضجيج. وهو مضطر إلى أن يزوره بين حين وحين، وقد يدعوه فجأة

صاحب الفندق الذى يقيم فيه المريض فيسرع إليه، ويسمع من أنباء صديقه ما يملأ قلبه لوعة وحزنا، ويثير أمامه من المشكلات ما لا يعرف إلى النفوذ منه طريقا. وهو فى أثناء هذا كله يتلقى الرسائل المتناقضة من الجامعة ومن مدير البعثات، ويتلقى المال القليل لينفق منه على المريض الذى كان يسرف فى الإنفاق، ولم تكن حاجاته تنقضى، ويتلقى فى الوقت نفسه من الجامعة مطالبته بتأدية الحساب الدقيق عما أنفق، ولا تنجلى عنه هذه الغمرة حتى يتلقى أمر الجامعة بإعادة الصديق المريض إلى القاهرة.

وفى أثناء هذا كله تضع الحرب أوزارها. وتعلن الهدنة، ويبتهج الفرنسيون ونزلاء فرنسا بمقدم السلم. ولا يكاد صاحبنا يمضى فيما عاد إليه من الدرس بعد تلك المحنة فى صديقه الكريم عليه الأثير عنده حتى تأتى الأنباء من مصر فتصرفه مرة أخرى عن رسالته وإعدادها صرفا عنيفا. ولكنه لم يكن حزينا ولا مروعا، وإنما كان سعيدا يملأ القلب غبطة والضمير رضا والنفس ثقة وإعجابا. فقد جاءت الأنباء بأن مصر تطلب استقلالها إلى المحتلين المنتصرين.

ثم جاءت الأنباء بأن مصر تلقى من المحتلين عنتا أى عنت وجحودا أى جحود وبأن بعض المصريين قد أخرجوا عنوة من وطنهم، واتخذوا رهائن فى مالطة، وبأن مصر قد غضبت لأبنائها وثارت بأعدائها.

فتقع هذه الأنباء كلها من قلب الفتى ومن قلوب زملائه الطلاب المصريين موقع الماء من ذى الغلة الصادى. ليس الأوربيون وحدهم إذن هم الذين يثورون غضبا للكرامة الوطنية وطموحا إلى استقلال الوطن. بل إن مصر الإفريقية تثور هى أيضًا كما ثار الإنجليز والفرنسيون والأمريكيون وأمم غربية أخرى.

ما أوسع الآمال التى ملأت قلوب أولئك الطلاب الغرباء! وما أعظم الكبرياء التى ملأت نفوسهم! وما أكثر ما أضاعوا من الوقت فى أحاديث لا تنقضى عن هذا كله! وما أكثر ما أعرضوا عن الدرس ليفرغوا لحديث الثورة والثائرين!

وكان صاحبنا مؤثرًا للعزلة لا يلقى رفاقه المصريين إلى قليلا. فقد كثر لقاؤه لهم وخوضه معهم فى أحاديث الثورة والثائرين منذ جعلت الصحف الفرنسية تنشر أنباء مصر وما يجرى فيها من الأحداث.

ولكنه على هذا كله لم يهمل الرسالة ولم يعرض عن درس أستاذه المشرف عليها، وإنما مضى فى عمله حفيا به حريصا على الجد فيه، كأن أنباء مصر قد زادته إقداما على إقدام وجدا على جد. وهى على كل حال قد شوقته أشد التشويق إلى أن يتم درسه ويعود إلى مصر ليشهد الأحداث عن كثب؛ ومن يدرى لعله يستطيع أن يشارك فى بعضها مما يتاح له أن يشارك فيه.

obeikandl.com

ولم ينس صاحبنا قط كيف كان يتلقى قارئته مع الصبح، فيغرق معها فى قراءة الفقه المدنى والفقه الجنائى والمدنى الرومانى فى كتابى المؤرخ الألمانى العظيم ممش. ولم يكن الفتى يصدق . بعد أن مضت على ذلك السنون . أنه قرأ هذه المجلدات الأحد عشر فى وقت قصير على ما فى قراءتها من العسر وكثرة ما فى هذه المجلدات من التعليقات ومن النصوص اللاتينية.

وما أكثر ما كان يسمع للقارئة وقد حمل أمينة بين ذراعيه ليتيح لزوجه أن تفرغ لما كان ينبغى أن تفرغ له من شئون البيت!

وما أكثر ما كان يملى فصول هذه الرسالة وصبيته بين ذراعيه يمشى بها فى غرفته الضيقة ممليا وقارئته تسمنه وتكتب عنه! وربما طلبت إليه أن يريح نفسه من الإملاء ويريحها من الكتابة دقائق، وأخذت منه الصبية فحملتها ومشت بها فى الغرفة وغنت لها بعض ما يغنى للأطفال، وأتاحت له بذلك أن يجلس ويستريح وزوجه فى أثناء هذا كله فى مطبخها مقبلة على تهيئة الغداء أو العشاء.

وفى ذات يوم يقبل الرفاق فينبئونه بأن سعدا . رحمه الله . وأصحابه سيصلون إلى باريس، وأنهم يتهيأون لاستقبالهم، ويطلبون إليه أن يشاركهم فى ذلك فيعتذر، لأنه لا يحسن من هذه الأمور شيئا.

ولكنه ينتظر حتى إذا استقر الوفد فى باريس ذهب ذات ضحى إلى حيث كان أعضاؤه يقيمون، فلقى سعدا . رحمه الله . بعد أن لقى رفاقه، وفيهم أستاذه الرفيق به العطوف عليه أحمد لطفى السيد.

وفيهم صديقه المشجع له الذى طالما شمله بالعناية والرعاية حين كان طالبا فى الجامعة. وكاتبا فى الجريدة. ثم شمله بالعناية والرعاية حين كان عضوا فى البعثة الجامعية بباريس وهو عبد العزيز فهمى رحمه الله.

وفيهم غير هذين الصديقين الكريمين آخرون كان يعرفهم بأسمائهم، ثم اتصلت المودة بينه وبينهم بعد ذلك، كما اتصلت الخصومة أيضا بينهم وبينه بعد ذلك.

لقى هؤلاء جميعًا ومعه زوجه، ثم أذن له فى لقاء سعد، وكان لسعد عنده دين منعه الحياء من أدائه حين كان طالبا فى الجامعة وأتيح له أن يؤديه بعد أن كاد يتم دراسته فى باريس.

الفصل الثامن عشر

أطول الناس لسانًا!

وكان دين سعد عند صاحبنا قديما يرجع تاريخه إلى العام الذى قدم فيه رسالته عن أبى العلاء إلى الجامعة، وظفر بعد مناقشتها بدرجة الدكتوراه، وكثر حديث الصحف والناس عن هذه الرسالة وصاحبها. وفى تلك الأيام قدم عضو من أعضاء الجمعية التشريعية اقتراحا يطلب فيه أن تقطع الحكومة معونتها عن الجامعة لأنها خرجت ملحدا هو صاحب رسالة "ذكرى أبى العلاء".

وكان سعد . رحمه الله . رئيس لجنة الاقتراحات فيما يظهر. فلما عرض عليه هذا الاقتراح دعا المقترح للقائه، وطلب إليه أن يعدل عن اقتراحه، فلما أبى قال له سعد: إن أصررت على موقفك فإن اقتراحا آخر سيقدم، وسيطلب صاحبه إلى الحكومة أن تقطع معونتها عن الأزهر، لأن صاحب هذه الرسالة عن أبى العلاء تعلم فى الأزهر قبل أن يتعلم فى الجامعة.

واضطر الرجل إلى أن يسترد اقتراحه، وسلمت للجامعة معونتها، ولم يتعرض الفتى لشر. وكان الأستاذ أحمد لطفى السيد هو الذى أنبأ صاحبنا بهذه القصة، وطلب إليه أن يسعى إلى سعد يشكر هذا الجميل. ولكن الفتى استحيا إذ ذاك فلم يسع إلى سعد، وأين هو من سعد؟

فلما أتيح له لقاء رئيس الوفد فى باريس شكر له تلك العارفة، وأثنى على جهده الخصب فى خدمة مصر وتضحيته فى سبيل الوطن والشعب. فسمع منه سعد ولكنه أجابه فى فتور وضيق بأن جهده وجهد أصحابه وجهد الشعب كله لن يغنى عن الوطن شيئا. ألا ترى إلى كل هذه الأبواب التى غلقت من دوننا؟ وها نحن أولاء قد وصلنا إلى باريس فقطعت علينا الطريق إلى مؤتمر الصلح، وألقيت الحجب الكثاف بيننا وبين ممثلى الدول المشتركة فيه؟

قال الفتى: ولكن هذه الجهود توقظ الشعب، وتنبهه لحقه، وتدفعه إلى المطالبة به والجهاد فى سبيله.

قال سعد محولا الحديث عن مجراه: ماذا تدرس فى باريس؟

قال الفتى: أدرس التاريخ.

قال سعد: أو مؤمن أنت بصدق التاريخ؟

قال الفتى: نعم إذا أحسن البحث عنه والاستقصاء له وتخليصه من الشائبات.

قال سعد: أما أنا فيكفى أن أرى هذا التضليل وهذه الأكاذيب التى تنشرها الصحف فى أقطار الأرض ويقبلها الناس فى غير تثبت ولا تمحيص لأقطع بألا سبيل إلى تصفية التاريخ من الشائبات، ولأقطع بعد ذلك بألا سبيل إلى استخلاص التاريخ الصحيح من هذه الشائبات. وانظر إلى ما ينشر عنا فى مصر وفى باريس وحدثنى كيف تستطيع أن تستخلص منه التاريخ الصحيح!

وهم الفتى أن يتكلم، ولكن سعدا مضى فى حديثه، قائلا: لقد أقبلنا إلى باريس والأمل يملأ نفوسنا فلم نقم فيها أياما حتى استأثر بنا اليأس.

قال الفتى: وكيف نيأس وقد أيقظتم الشعب فاستيقظ، ودعوتموه فاستجاب؟

قال سعد: وماذا يستطيع الشبع أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلا عن أن يثور بأصحاب القوة والبأس؟

قال الفتى: هو الآن أعزل، ولكنه سيجد السلاح غدا.

قال سعد: وأين يجده؟

قال الفتى: إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا لنا الأسلحة.

فأغرق سعد فى الضحك، وقال وهو ينهض: ألا تعلم أن الذين يراقبون تهريب الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة؟

وانصرف الفتى عن سعد فلم يره إلا بعد عام، بل بعد أكثر من عام، ولم يلقه سعد فى تلك الزيارة الثانية بباريس لقاء الهاش له المرحب به، وإنما لقيه فى شيء من الفتور. قال له وسمع منه، ولكنه لم يقل شيئا ذا بال، ولم يسمع منه شيئا ذا بال، وإنما كان لقاء قصيرا قوامه المجاملة ليس غير.

وقد عرف الفتى مصدر هذا الفتور، فلم يضق به، ولم يبتهج له، وإنما هز رأسه ورفع كتفيه.. وكان مصدر هذا الفتور أن جماعة من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أحيوا ذكرى وفاة أستاذهم فى الجامعة، وخطب صاحبنا فى ذلك الحفل فزعم أن مصر مدينة بما أتيح لها من اليقظة لثلاثة رجال لا ينبغى أن تنساهم.

أولهم: الأستاذ الإمام الذى أحيا الحرية العقلية.

والثاني: مصطفى كامل الذى أذكى جذوة الحرية السياسية.

والثالث: قاسم أمين الذى أحيا الحرية الاجتماعية.

وقرأ سعد هذا الحديث.. فوجد على الفتى، لأنه لم يذكره بين هؤلاء العظماء. وتوالت خطوب السياسة بعد ذلك، وكان صاحبنا أطول الكتاب لسانا وأجرأهم قلما فى مهاجمة سعد ونقد سياسته قبل أن يلى الحكم وبعد أن وليه، وبعد أن اضطر إلى اعتزاله. وأصاب الفتى من هذه الخصومة مكروه أى مكرهو، ولكنه لقى سعدا بعد ذلك للمرة الثالثة والأخيرة فى دار شوقي، رحمه الله.

كان شوقى يستقبل الشاعر الهندى العظيم تاجور. وقد دعا لهذا الاستقبال من شاء الله أن يدعوهم من أصحاب الثقافة ورجال السياسة والحكم. وكان صاحبنا أحد المدعوين. وإنه لبين جماعة من أصحابه وإذا سعد يقبل، فيخف الناس جميعا للقائهم ويهم صاحبنا أن يتأخر ولكنه أصحابه يدفعونه دفعا، وكان أشدهم فى ذلك الشيخ عبد العزيز البشرى، رحمه الله. ويجد الفتى نفسه يصافح سعدا ويسمع سعدا يلقاه لقاء حسنا. ثم يعود الناس إلى أماكنهم ويقيم سعد ساعة أو بعض ساعة ثم ينصرف إلى مجلس النواب، وكان له رئيسا.

وقد كاد الفتى يلقى سعدا مرة أخرى لو أريد الفتى على أن يلقى سعدا مرة أخرى، ولكنه امتنع وألح فى الامتناع فلم يتم هذا اللقاء. كان ذلك حين أراد بعض النواب الوفديين أن يثير قصة الشعر الجاهلى مرة أخرى فى المجلس. فرده سعد عن ذلك قائلا: لقد انتهى هذا الموضوع فلا معنى للعودة إليه.

قرأ صاحبنا ذلك فى الصحف فلم يكد يحفل به أو يلقى إليه بالا، ولكن الأستاذ أحمد لطفى السيد كان مدير الجامعة ورفيقا بصاحبنا. فألح عليه فى أن يمر بدار سعد ويترك بطاقته، وعسى أن يلقاه فيشكر له كلمته الطيبة فى مجلس النواب. ولكن صاحبنا أبى وأصر على الإباء، وقال إن سعدا لم يزد على أن أدى واجبه كف سفيها أحمق من نوابه عن سفهه وحمقه.

واشتد الجدال فى ذلك بين الأستاذ وتلميذه ولكنهما لم يصلا إلى شيء، فاحتكما فى المساء إلى عبد العزيز فهمى، رحمه الله. ولم يلبث هذا أن قضى لصاحبنا فى غير مشقة ولا جدال. وما أسرع ما استحال الأمر كله إلى دعابة بين الأستاذين الكبيرين حول ما كان يملأ قلب عبد العزيز فهمى وعقله ويجرى على لسانه من سخط على سعد، وإنكار لكل ما كان يصدر عنه من قول أو فعل، لا لشيء إلا لأنه صدر عن سعد.

وكذلك كانت صلة صاحبنا بسعد يسيرة كل اليسر فى ظاهرها، عسيرة أشد العسر فى حقائقها ودخائلها. جرت على الفتى شرا كثيرا، وأتاحت له مع ذلك خيرا كثيرا، وتقلبت به بين ضروب من الرضا والسخط، وفنون من الأمل واليأس، وألوان من الشدة واللين. ولكن حديث هذا كله لم يأت بعد.

فلنعد إلى صاحبنا فى باريس لنراه مقبلا على حياته، غارقا فى مشكلتها، مثقلا بأعبائها. يعد رسالته، ويختلف إلى دروسه، ويلقى أستاذه، ويحتمل ضروبا من الجهد فى إجراء حياة أسرته على ما ينبغى أن تجرى عليه من هذه السعة اليسيرة التى تقيم الأود ولا تعرض للبأس أو الشقاء.

وأقبل الصيف وقد قدم صاحبنا رسالته إلى السوربون فرضيت عنها، ولكنه لم يرسلها إلى الجامعة، ولم تسأله الجامعة عنها، وإنما أقبل على امتحانه فنجح فيه نجاحا حسنا، وظفر بالدبلوم، وأتم بذلك أداء واجبه الذى كلفته الجامعة أن يؤديه. وآن له أن يعود إلى مصر.

ولكن عودته إلى مصر أثارت بينه وبين المدير الإنجليزى للبعثة خلافا طويلا ثقيلا سخيفا فى وقت واحد. فقد كان نظام البعثة يقضى بأن يعود الطالب إلى مصر على نفقة الجامعة إن أتم دراسته على الخطة المرسومة له. ولكن صاحبنا لن يعود وحده، بل ستصحبه زوجه، فعلى نفقة من تعود هذه الزوج؟

هنا حار المدير الإنجليزى للبعثة. فكتب إلى الجامعة مستفتيا. وأذنت له الجامعة فى أن يعيد الزوجين جميعا. ولكن الزوجين لن يستطيعا العودة إلا إذا عادت معهما أثقالهما، وكانت الكتب أهم هذه الأثقال، فهى أكثر وأضخم من أن توضع فى الحقائق وكثير منها ملك للجامعة سيستقر فى مكتبتها آخر الأمر، والانتقال من باريس إلى القاهرة لا يتم بمجرد أن يتسلم المسافر بطاقات السفر فى القطار والسفينة، ولكنه يحتاج إلى فضل من النفقة، فمن يؤدى هذا الفضل من النفقة؟ وكذلك احتاج مدير البعثة أن يكتب إلى الجامعة مستفتيا مرة أخرى، وليس شيء أضيع للوقت ولا أقل للجد ولا أدعى إلى السأم والضيق من الجدال الطويل المتصل حول الموضوع السخيف الذى لا خطر له ولا طائل فيه.

وكم ضاق الفتى بما كان يكتب وما كان يتلقى من الرسائل حول هذا السخف الذى لا يغنى عنه شيئا، ولكنه وصل مع زوجه إلى مارسيليا عشية اليوم الذى حدد لإبحار السفينة.

ولا يكادان يصلان إلى هذه المدينة حتى يعلما، ويا ثقل ما علما! أن سفينتهما لن تبحر من الغد، لأن إضرابا يحول بينها وبين الإبحار. واتصل الإضراب يوما ويوما ويوما، ثم اتصل بعد ذلك حتى بلغ خمسة وعشرين يوما. وليس مع صاحبنا وزوجه وطفلهما ما ينفقان، ولا أمل فى الاتصال بمدير البعثة، ولا سبيل إلى الاتصال المباشر بالجامعة. فليقترض إذن من زميله ذاك الذى سيعود معه على السفينة نفسها، والذى ينتظر مثله أن ينقضى الإضراب، والذى لا يخلو جيبه من مال كثير، لا لأنه كان غنيا، بل لأنه كان مدبرا مقتصدا أروع تدبير واقتصاد. وقد أخذ يقترض، وبدأ الزوجان حياتهما المستقلة بالدين وأى دين.

ويبلغان الإسكندرية بعد لأى وقد شق عليهما السفر، وعنف بسفينتهما البحر، ونفد ما اقترضا من المال. ولكن الفتى كان قد كتب إلى صديقه الكريم عليه المؤثر له حسن باشا عبد الرازق محافظ الإسكندرية إذ ذاك بمقدمه. فلا تكاد السفينة ترسو حتى يقبل رسل المحافظ الصديق فيستخلصوا الأسرة من الضيق والشدة والحيرة إلى السعة والدعة والاطمئنان فى ذلك البيت الرائق الجميل الذى كان المحافظ قد اتخذه فى رمل الإسكندرية.

وفى هذا البيت تقيم الأسرة مع الصديق الكريم، رحمه الله، أسبوعا قبل أن تمضى إلى القاهرة، ولكنها تؤثر الإقامة فى الإسكندرية وتشفق من شظف العيش الذى ينتظرها متى هبطت من القطار. ومن لها بالقطار وصاحبنا لا يملك أجره ولا يجرؤ على أن يتحدث إلى صديقه فى ذلك، ولا يستطيع أن يكتب إلى أخيه فى القاهرة، لأن زوجه لا تكتب العربية ولأن أخاه لا يقرأ الفرنسية...

وإن الزوجين لفى سمرهما مع المحافظ الصديق ذات ليلة، وإذا هو ينبئهما بأن قد آن لهما أن يسافرا، وآن للفتى أن يقدم نفسه إلى الجامعة التى تعرف وصوله إلى مصر وتنتظر مقدمه إليها.

وقد أعد كل شىء لسفرهما فى القطار الذى يبرح الإسكندرية ضحى الغد، فإذا أصبحا وفرغا من طعام الإفطار أقبل الصديق متلطفا يقول لزوج الفتى: أتعرفين النقد المصرى؟

قالت متضاحكة: لا.

. ها هو ذا فادرسيه على مهل.

ثم ودعهما وانصرف مسرعا فركب عربته إلى مكتبه.

وتدرس زوج الفتى هذا النقد، فإذا الصديق قد جمع لها أوراقا تصور النقد المصرى إلى العشرة من الجنيهات. وقد فهم الزوجان عن صديقهما، وأضافا فى حسابهما دينا لم يؤد قط إلى دين ما أسرع ما طالب صاحبه بأدائه ومعه فوائده على قلة ما لبث الدين فى ذمتهما من الأسابيع..

ويتجاوز النهار نصفه قليلا ويبلغ القطار محطة القاهرة، وينظر الزوجان فإذا هما فى غمرة من الأهل والصديق، ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب حياتهما الجديدة بأسباب مصر.

الفصل التاسع عشر

رفضت أن أحضر مؤتمرا للعميان!

وبدأت حياة الزوجين فى مصر متعثرة، يبسم لها الأمل فتخف وتشرف، وتعبس لها الضرورة فتثقل وتظلم. كانا ضيفا على أخى الفتى، ولكنهما كانا يعلمان أن هذه الضيافة لا ينبغى لها أن تطول، وأن ليس لهما بد من أن يستقلا بحياتها ولا يكونا عيالا على قريب أو غريب. واستقلال الأفراد كاستقلال الجماعات، لا يهبط لهم من السماء ولا ينجم لهم من الأرض، وإنما يكتسب اكتسابا، وتبتغى إليه الوسائل، وتسلك إليه السبل التى تستقيم بأصحابها حينا وتلتوى بهم حينا آخر. وكانا يعرفان هذا كله، ويعرفان السبيل إلى استقلالهما، ولكن صاحبنا لم يكن يملك الوسائل إلى سلوك هذه السبيل... فهو لا يملك درهما ولا دينارا. وقد بخلت الجامعة عليه بما كانت تمنحه الناجحين من طلابها إذا عادوا إلى مصر من المكافأة ليهيئوا. أنفسهم لاستقبال حياتهم الجامعية؛ وأكبر الظن أنها لم تبخل عليه بهذه المكافأة عن رضا واختيار، بل عن كره واضطرار. فقد رأى صاحبنا نفسه إذن مضطرا إلى أن يقترض من المال ما يتيح لزوجه وله أن يأويا إلى دار يعيشان فيها كما يريدان، لا كما يراد لهما.

وهون عليه الأمر صديق كريم هو الأستاذ محمد رمضان، رحمه الله، صحبه إلى شركة كانت تسمى شركة التعاون المالي، وضمنه عند هذه الشركة، فأرضته مئة من الجنيهات واقتطعت منها الفائدة وأعطته سائرها. وظن الفتى حين وقع فى يده هذا المال أنه أصبح على رأس ثروة ضخمة. فهو لم يملك مثل هذا المقدار من المال قبل اليوم. وقد أتى عليه حين من الدهر كان أقصى ما يمكن أن يقع فى يده من المال لا يبلغ الجنيه غالبا ولا يتجاوزه بحال من الأحوال. ثم أتى عليه حين آخر من الدهر كان أقصى ما وصل إليه من المال لا يزيد على عشرين جنيها.

أتيح له هذا المقدار الذى كان يراه ضخما حين نجح فى الجامعة بمصر، وحين نجح فى السوربون بباريس. وهو اليوم يعد الجنيهات التى صارت إليه بالعشرات الكثيرة. على أنه لم يلبث أن رأى هذه العشرات تتناقص شيئا فشيئا. فقد أدى دينه إلى زميله ذاك الفتى الذى أعانه على انتظار آخر الإضراب فى مارسيليا.

ومر مع زوجه بمصرف الكريدى ليونيه، ولا أدرى كيف كان ذلك. فقرأت عليه زوجه إعلانا ينبئ بأن المصرف يعرض منذ اليوم للبيع سهاما فى قرض فرنسى جديد. ومن مزايا هذه السهام أن القرعة تجرى بينها من حين إلى حين، وأن بعض هذه السهام يمكن أن يربح مليونا

من الفرنكات. وكانت قيمة هذا المليون فى تلك الأيام عشرين ألفا من الجنيهات. ولم يسمع الفتى هذا الإعلان حتى عزم على زوجه لتدخلن معه المصرف وليشترين لها سهما من هذه السهام، وقد أبت عليه أشد الإباء، ولكنه ألح وغلا فى الإلحاح حتى استجابت له كارهة. وما هى إلا ساعة حتى رأى الفتى زوجه مسهمة فى هذا القرض الفرنسي، وجعلت الآمال تداعبه، وجعل يقيس ما بقى له من مال إلى الألوف العشرين التى يمكن أن تساق إلى زوجه إن ربح سهمها بعد حين، فيأخذه شيء يشبه الدوار.

ولكن الاقتراع الأول قد أجري، وربح فيه سهم مصرى لم يكن سهم زوجه، وإنما كان يملكه مظلوم باشا، رحمه الله...

وما أكثر ما ضحك الزوجان حين قرأ ذلك النبأ، وحين صح لهما ما كانا يسمعان من أن المال يدعو المال، ومن أن العسر لا يدعو اليسر إلا قليلا!

وقد مرت الشهور والأعوام وجعل الفرنك ينحل ويتضاءل، وتنحل معه قيمة هذه الأسهم وتتضاءل، حتى بلغت قيمة السهم الذى اشتراه الفتى لزوجه سبعة جنيهات، ثم خمسة، ثم انتهى إلى ثلاثة. ثم انقطعت أنباؤه وذاب كما يذوب الملح فى الماء. مهما يكن من شيء فقد نظر صاحبنا بعد أداء دينه وشراء سهمه إلى ما بقى له من المال، فإذا هو لا يبلغ العشرات الخمس، وإذا هو أقصر يدا وأضيق ذراعا من أن يبلغ ما يريده ويؤسس لزوجه ولنفسه دارا يرضيان عنها وعما فيها. ولابد لهما مع ذلك من دار ومن أثاث فى تلك الدار، فاستأجر لهما الأستاذ محمد رمضان دارا فى حى السكاكيني، وعمدا ومعهما الأستاذ محمد رمضان إلى سقط المتاع، فاشتريا منه ما يقوم بتلك الدار من الأثاث.

وما أشد ما شقيت نفس الفتى حين كان يرى زوجه تغالب دموعها وهى تختار بين ذلك السخف الذى لم يكن بد من الاكتفاء به حتى يجعل الله بعد عسر يسرا، وبعد ضيق سعة، وبعد حرج فرجا.

وقد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما، وخادعا نفسيهما عما فيها، واطمأنا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه.

وكان صاحبنا قد صرف هذا الوقت الطويل عما كان ينبغى أن يفكر فيه منذ بلغ القاهرة. فستبدأ الدراسة فى الجامعة بعد أيام، وليس له بد من أن يعد درسه الأول ويتهيأ لإلقائه فى ذلك الحفل الذى سيقدمه فيه إلى المستمعين عضو من أعضاء مجلس الإدارة، وما أسرع ما عاد إلى الكتب، وعاد الصوت العذب إلى القراءة، وعاد اشتراك الزوجين فى هذه الحياة الصافية النقية التى لا يكدرها المال ولا ينغصها الحرمان، والتى تسلى عن اليأس والبؤس والحرمان.

وجاء اليوم الموعود، وأقبل صاحبنا إلى قاعة الدرس، فتلقاه ثروت باشا، رحمه الله، وقدمه إلى المستمعين أحسن تقديم. وألقى صاحبنا درسه، فرضى عنه الناس، ورضى عنه هو أيضا.

وعاد الزوجان من ليلتهما تلك موفورين محبورين، قد ملأ الأمل قلبيهما، وأزالا عنهما وضر ما احتملا من شقاء، وكان حظهما من السعادة والغبطة والرضا أعظم وأعمق بعد أن ألقى صاحبنا درسه الثانى.

وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذى اختاره صاحبنا لدروسه فى هذا العام، ولا سبيل إلى الأخذ فى درس التاريخ إلا إذا قدم بين يديه وصف جغرافى للبلاد التى يدرس تاريخها، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافى لبلاد اليونان. وشهد الله لقد عرض هذا الوصف فملك قلوب الذين استمعوا له، وملأ نفوسهم رضا عنه وإعجابا به. وهو لم يصنع فى إعداد هذا الدرس إلا أن سمع لزوجه وأطاع.

أرادت زوجه أن تفهمه الوصف الجغرافى لبلاد اليونان، فأخذت قطعة من الورق وصاغتها فى شكلها على نحو ما صاغت الطبيعة تلك البلاد. ثم أرادت أن تصور ما فى هذه البلاد من الجبل والسهل الذى يضيق حينا ويتسع حينا ومن البحار التى تأخذها من أكثر جهاتها، فصور ذلك بارزا فى هذه القطعة من الورق ثم أخذت يد الفتى وجعلت تمرها على هذه الورقة بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضى إلى الشمال، وتنحرف مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب، لتبين له مواقع البحر، ولتبين له الأماكن التى تضيق حينا وتتسع حينا، والتى كانت تقوم فيها المدن القديمة. ومازالت به حتى فهم ذلك حق الفهم وأعاده عليها فاطمأنت إليه.

وكان أول ما عجب له الموظفون فى الجامعة أن صاحبنا طلب قبل الدرس أن تعرض الصورة الجغرافية لبلاد اليونان فى قاعة الدروس. سمع الموظفون ذلك فأنكروه، ولكنهم أضمروا إنكارهم وأجابوه إلى ما أراد. وأقبل الفتى على مجلسه فأنبأ المستمعين بأنه سيصف لهم بلاد اليونان من جنوبها إلى شمالها، وليس عليهم إلا أن يتبعوه بأبصارهم على هذه اللوحة المصورة. ثم أخذ فى الحديث فلم يلجلج ولم يتردد. والطلاب يسمعون بآذانهم ويتبعون بأبصارهم حتى انقضت ساعة الدرس وقد أتم الفتى ما أراد من الوصف الجغرافى لبلاد اليونان.

وكان ثروت باشا حاضرا هذا الدرس، فلما تفرق الطلاب دعا الفتى إليه فأشبعه ثناء وتقريظا وتشجيعا.

ولم تمض أيام بعد تلك الليلة السعيدة حتى أقبل على دار الفتى ذات ضحى شاب من موظفى القصر، فأنبأه بأنه قد أقبل يدعوه للقاء رئيس الديوان.

قال الفتى: وماذا يريد منى رئيس الديوان السلطانى وأنا لم أعرفه، وما أظنه رآنى قط؟

قال الموظف: لا أدرى، ولكنه أمرنى أن أدعوك للقائه، وأن أصحبك إلى مكتبه.

وبعد ساعة كان الفتى عند رئيس الديوان شكرى باشا، رحمه الله، فرأى رجلا سمح النفس، عذب الحديث، خفيف الظل، له مشاركة فى الأدب العربي، ولكن فى الأدب العربى الذى كان الناس يحبونه فى القرن الماضي. فهو كان يتحدث عن الجناس والطباق وحسن الفكاهة وبراعة التورية، ويروى لكل هذا أمثلة من الشعر المتأخر لم يحفظ الفتى منها إلا بيتا واحدا لأنه لم يكد يسمعه حتى غلبه الضحك على ما كان ينبغى له من الأدب والوقار فى ذلك المجلس المهيب. وضحك شكرى باشا لضحك الفتى، وقال فى نغمة لا تخلو من حزن: كان هذا البيت يملؤنا رضا وإعجابا وها أنتم أولاء شباب اليوم تضحكون منه وتتندرون به وبأمثاله، والبيت هو:

أخذ الكرا منى وأحرمنى الكرى ... بينى وبينك يا ظلوم الموقف

ويجب أن تقرأ الكرا مكسور الكاف فى أول البيت وهو الأجر ومفتوح الكاف فى آخر الشطر الأول وهو النوم، وأن تعرف أن "الموقف" هو ذلك المكان الذى كانت تجتمع فيه الحمر لتحمل إلى حيث يريدون من المدينة.

والشاعر يريد أن يقول إن صاحب الحمار قد أخذ منه الأجر، واشتط عليه فيه، فذاد عنه النوم، ثم هو يشكو من ظلم صاحب الحمار، ويجعل موقف الحساب يوم القيامة بينه وبينه لينصفه الله منه.

وظاهر أن الجناس بين الكرا والكراى والتورية بالموقف لموقف الحمر هما مصدر الجمال الذى فتن رئيس الديوان وأضحك الفتى؛ ولا عليك من هذه الهمزة التى زيدت فى حرمنى فقد دعت إليها ضرورة الوزن. والضرورات تبيح المحظورات!

وطال مجلس الفتى عند رئيس الديوان حتى إذا أقبل بعض الزائرين، استأذن فى أن ينصرف، فأذن له الرئيس وهمس فى أذنه: إن مولانا يحب أن يراك.

ولم يعرف صاحبنا كيف يقول، ولكنه لم يمس من ذلك اليوم حتى عاد إليه موظف القصر يحمل إليه كتابا من كبير الأمناء بأن المقابلة التى التمس التشرف بها قد حدد لها تمام الساعة الحادية عشرة من صباح الغد.

وسمع الفتى ذلك الكتاب فلم يملك نفسه أن قال: ولكنى لم ألتمس شيئا.

قال موظف القصر فى صوت يجرى فيه الخوف: لا تقل هذا، فمراسم التشرف بمقابلة مولانا تقتضى دائما أن تطلب المقابلة.

وسكت الموظف قليلا ثم قال: هل عندك سترة الردنجوت؟

قال الفتى؟ نعم.

قال الموظف: ما شاء الله! كنت أريد أن أعيرك سترتى.

قال الفتى: لقد اتخذت هذه السترة حين كنت أتهيأ للزواج.

ولم تتم الساعة العاشرة من صباح غد حتى أقبل موظف القصر ذاك رحمه الله فصحب الفتى إلى حيث أسلمه لأحد الأمناء الذى أخذ يحدثه حتى حان موعد المقابلة، فصحبه إلى مكتب السلطان. وخف السلطان للقائه كأحسن ما يكون اللقاء. ثم أجلسه غير بعيد من المائدة التى كان يجلس إليها وتلطف له فى الحديث، وشمله بعطف كثير. وسأله: ماذا درس فى فرنسا؟ وماذا نال من الدرجات الجامعية؟ فلما أنبأه الفتى بما درس وما نال من الدرجات أظهر الرضا، وأثنى على الفتى ثناء حسنا لأنه درس اللغتين القديمتين، ثم قال مترفقا: تعلم أنى كنت رئيس الجامعة حين كنت أنت طالبا فيها...

فأطرق الفتى ولم يجب. قال السلطان: إنما ذكرتك بذلك لأدعوك إلى أن تلجأ إلى كلما ضقت بشيء أو احتجت إلى عون.

واضطرب لسان الفتى بالشكر. ولكن السلطان دق الجرس ووقف، فوقف الفتى، وأقبل الأمين فصحبه إلى خارج الغرفة. وأسلمه إلى موظف القصر ليرده إلى داره.

وكان الفتى مضطربا قبل أن يلقى السلطان لقصة كانت له معه حين كان رئيسا للجامعة، وكان صاحبنا طالبا فيها.

انعقد فى مصر مؤتمر للمكفوفين فى سنة من تلك السنين، واهتم له سكرتير الجامعة أحمد زكى "بك". فألقى فيه حديثا وقدم إليه كتابا عربيا قديما ينبئ فيما يظهر بأن العرق قد سبقوا إلى اختراع الكتابة البارزة.

وفى ذات مساء كان الفتى يسعى إلى غرفة الدرس، وإذا رجل يأخذ بمجامع جبته وقفطانه ويقول له فى لغة ملتوية: تعرف أن فى مصر الآن مؤتمرا منعقدا يبحث فى شئون العميان..

قال الفتى فى عنف: وما أنا وذاك!

قال الرجل: تلقى فيه خطبة.

قال الفتى: لن ألقى شيئا.

فخلاه الرجل ومضى وهو يقول: مش فاهم مش فاهم.

ولم يكد الفتى يبلغ غرفة الدرس حتى أحاط به ثلاثة أو أربعة من أعضاء مجلس إدارة الجامعة وجعلوا يسألونه: أتعرف من حدثك؟

قال الفتى: لا أعرفه، ولا يعنينى أن أعرفه.

قال قائل منهم وهو يضع يده على كتف الفتى: إنه أفندينا الأمير! إنه رئيس الجامعة، فلا أقل من أن تجيبه فى أدب حين يتحدث إليك.

وهز الفتى رأسه ولم يقل شيئا، فتفرقوا عنه وإن أحدهم ليقول: "دعوه فإنه شيخ!".

ذكر صاحبنا هذه القصة فى طريقه إلى القصر فاضطرب لها. فلما ذكره السلطان بأنه كان رئيسا للجامعة وقف فى نفسه أن السلطان يريد أن يذكره بتلك القصة. فكاد الاضطراب يغلبه على أمره لولا أن السلطان رده إلى الهدوء بما مضى فيه من حديثه ذاك.

ولم يمض وقت طويل حتى تعقدت الأمور بين الجامعة وبين صاحبنا، فهو قد تبين أن زوجه لا تستطيع أن تمنحه من وقتها كل ما يحتاج إليه للقراءة وإعداد الدروس. ولا تستطيع أن تصبحه دائما إلى الجامعة، ولا أن تخرج معه كلما أراد الخروج فليس لها بد من أن تعنى بصبيتها ومن أن تقوم على دارها. وإذن فهو محتاج إلى رفيق يقرأ له أكثر النهار، ويغدو معه ويروح كلما أرد غدوا أو رواحا. ولا سبيل إلى أن يقتطع أجر هذا الرفيق من مرتبه، وكان ثلاثة وثلاثين جنيها يقتطع منه فى كل شهر ما يؤدى به بعض دينه لشركة التعاون. فطلب إلى الجامعة أن تزيد فى مرتبه ما يعينه على أجر ذلك الرفيق. وأبت عليه الجامعة ما طلب كأنها ضاقت بكثرة مطالبه، فاستقال فى لهجة شديدة غضب لها مجلس الإدارة أشد الغضب.

وقال سكرتير الجامعة لصاحبنا ذات مساء: إن المجلس مزمع أن يقبل استقالتك وأن يطالبك بأن ترد على الجامعة ما أنفقت عليك فى أثناء إقامتك فى فرنسا.

وسمع صاحبنا ذلك فضاق به، واكتأب له، وراح إلى أهله محزونا كاسف البال؛ فلما قص الأمر على زوجه هونت عليه الصعب، ويسرت عليه العسير. وأقنعته بأنه كغيره من الناس يخطئ ويصيب، وبأنه أخطأ حين أسرع إلى الاستقالة، والرجوع إلى الصواب خير من الإصرار على الخطأ، وأسرف حين أساء إلى الجامعة التى أحسنت إليه، والرجوع إلى القصد خير من

obeikandl.com

التمادى فى الإسراف. فليس عليه بأس أن يسترد استقالته، وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته القاسية.

وأصبح صاحبنا فاسترد استقالته راغمًا، واعتذر إلى الجامعة راغمًا أيضًا. واقتطع من مرتبه منذ ذلك اليوم أجر ذلك الرفيق الشيخ الذى كان يقرأ له ويغدو معه ويروح.

ولم يعلم الفتى كيف ارتفع أمر هذه الخصومة بين وبين الجامعة إلى السلطان. ولكن موظف القصر يزوره ذات مساء ويقول له فى صوت متضاحك: لقد التمست التشرف بمقابلة عظمة السلطان، وقد حدد لهذه المقابلة منتصف الساعة الثانية عشرة من الغد.

ويدفع إليه كتابا من كبير الأمناء بهذا المعنى، فإذا انصرف عنه قال سأصحبك غدا إلى القصر.

وتلقى السلطان صاحبنا لقاء حسنا، وتحدث إليه فأطال الحديث. ثم قال له فجأة: لقد بلغنى نبأ استقالتك من الجامعة، وقد أحسنت بالعدول عن هذه الاستقالة، ولابد من صبر طويل واحتمال كثير من الجهد، فبين هؤلاء الناس وبين حسن الذوق وقت مازال طويلا. ولكن اذكر دائما ما قلته لك حين لقيتك فى المرة الأولى.

ثم دق الجرس ووقف، فوقف الفتى، وأقبل الأمين فقاده إلى خارج الغرفة. وشعر صاحبنا بأن عليه منذ اليوم للسلطان دينا يجب أن يؤدى. ولم تمض شهور حتى كان قد أتم أول كتاب أصدره بعد عودته من أوربا: "صحف مختارة من الشعر التمثيلى اليوناني". فأهداه إلى السلطان، ورفعه إليه فى مقابلة ثالثة التمسها هو وأجيب إليها، وظن أنه قد أدى إلى السلطان حقه وشكر له عطفه عليه وبره به، ولكن السلطان كان يرى شيئا آخر، وينتظر شكرا آخر غير إهداء كتاب مهما يكن موضوعه.

الفصل العشرون

إيمانٌ بالثورة!

لم يكن صاحبنا قد أتم العقد الثالث من عمره حين عاد من أوربا وأصبح أستاذا فى الجامعة، ولكنه كان يعتقد أن تجاربه الكثيرة التى بلا حلوها ومرها فى أثناء إقامته فى فرنسا قد تجاوزت به هذه السن، ونيفت به على الأربعين، فهو قد أنفق فى فرنسا أعوام الحرب العالمية كلها، وهو لم يعش تلك الأعوام لاهيا عما كان يجرى حوله من الأحداث، ولا غافلا عما كان فى هذه الأحداث من عبر وعظات. وهو لا يذكر أنه صرف عن أحداث الحرب وأصدائها فى الأمة الفرنسية وغيرها من الأمم المحاربة يوما من الأيام. كان يقرأ الصحف الفرنسية معنيا بقراءتها، وكان يطيل التفكير فيما يقرأ.

وهو لم يعد إلى مصر إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وامتاز المنتصر من المنهزم، وظهرت آثار الانتصار عند الغالبين، وآثار الهزيمة عند المغلوبين، وثلت عروش كان الناس يقدرون لها الخلود، وذلت شعوب كان الناس يقدرون لها سلطانا لا يزول.

وفى أثناء تلك الحرب كانت ثورة لم يعرف التاريخ لها نظيرا إلا الثورة الأمريكية والفرنسية فى القرن الثامن عشر. وقد حاولت هذه الثورة أن تحقق نظاما كان الناس يقرءونه فى الكتب، ويعتقدون أنه من هذه المثل البعيدة التى لا سبيل إلى تحقيقها.

كل ذلك عرفه صاحبنا وتتبع أنباءه وآثاره فى عناية لم تكن أقل من عنايته بالدرس والتحصيل، وهو فى هذا الدرس وهذا التحصيل قد قرأ وسمع أساتذته يعرضون ويفسرون تاريخ الأمم القديمة والحديثة، وما اختلف عليها من الأحداث التى تطورت لها نظم الحكم على اختلاف العصور. وكان شديد التأثر بدروس الأستاذ دوركيم فى علم الاجتماع، وكان الأستاذ دوركيم قد أنفق عاما كاملا يدرس لتلاميذه مذهب الفيلسوف الفرنسى سان سيمون الذى يقوم على أن أمور الحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل، ويكفل رقى الشعب، ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى أمام، يجب أن تصير إلى العلماء لأنهم هم الذين يستطيعون أن يلائموا بين نتائج العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقتهم واستعدادهم للتطور والمضى فى سبيل الرقى.

فليس غريبا أن يعود صاحبنا إلى وطنه مؤمنا بالثورة التى نشبت فيه، ومؤمنا فى الوقت نفسه بأن عبئا خطيرا من أعباء هذه الثورة سيقع على العلماء والمثقفين من أبناء هذا الوطن، فهم قد عرفوا تجارب الأمم، وعرفوا حقائق العلم، واستطاعوا أن يميزوا بين ما يمكن من الأمر وما لا

يمكن، وهم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير، ويسلكوا به قصد السبيل، ويعصموه من التورط فيما تورطت فيه شعوب كثيرة فلم تجن منه إلا شرا.

وكان صاحبنا يقدر أن الساسة الذين يقودون الثورة يختلفون فى يوم قريب أو بعيد، ويعتقد أن العلماء والمفكرين سيكونون هم الذين يحققون التوازن بين الساسة حين يختلفون، وسيقضون بينهم فيما يضطرون إليه من الاختلاف.

كان مؤمنا بهذا، وكان مستيقنا أن العلماء والمفكرين لن ينحازوا إلى الأحزاب، ولن يكونوا كغيرهم من عامة الناس، الذين يقادون ولا يقودون، ولم يكن يقدر أن سيشارك فى السياسة من قرب أو بعد، ولكنه لم يكن يتردد فى أنه لن يحجم عن أداء الواجب وقول كلمة الحق إن اضطر إلى ذلك غير حاسب للظروف ولا للعواقب حسابا.

على أنه لم ينفق فى مصر شهورا حتى تبين أنه كان واهما فى كل ما قدر، وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التى يعيشون فيها، فيخطئون مثلها ويصيبون. بل هم قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التى يذهبون مذهبها أو يرون رأيها. وهنالك تبين أن ذلك الشاعر الجاهلى إنما صور حقيقة خالدة من حقائق الجماعات حين قال:

أمرتهمُوا أمرى بمنعرجِ اللوى فلم يستبينوا الرُّشد إلى ضُحَى الغدِ

فلما عَصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم أن أننى غيرُ مهتدي

وهل أنا إلا من غزيَّةَ إن غَوَت غَويتُ وإن ترشد غزيةُ أرشدِ

وكان أول ما لاحظ بعد أقام وقتا قصيرا فى مصر، أن الأمر كان مختلفا بين الذين كانوا يرون أنفسهم علماء ومفكرين وبين عامة الناس والشباب منهم خاصة.

فأما أولئك فكانوا يؤمنون بالثورة، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنفسهم أيضا؛ وهم من أجل ذلك لا ينظرون إلى الأحداث ولا يشاركون فيها خالصين لها فى غير تردد، وإنما كانوا يقدرون لأرجلهم مواضعها قبل الخطو، ولا يتحرجون من نقد الساسة والقادة والتندر بهم حين يقولون وحين يفعلون. وكان هذا الموقف يعرضهم للانقسام على أنفسهم ومشاركة الساسة فى الاختلاف حين يتورطون فيه.

وأما عامة الناس. والشباب منهم خاصة. فكانوا مؤمنين بالثورة، قد أخلصوا لها نفوسهم وقلوبهم وأيديهم أيضا. لا يفكرون فى عاقبة ولا يخافون هولا مهما يكن. وهم كانوا يعرضون صدورهم لرصاص الإنجليز، ويغامر بحياتهم مغامرة رائعة على حين كان بعض الساسة القائمين

بالحكم فى تلك الأيام لا يحفلون بهم ولا بما يلقون، وإنما يصانعون الإنجليز حينا، ويصانعون القصر حينا آخر، ويسخرون من أولئك الذين كانوا ينتظرون فى باريس أن تفتح لهم أبواب وزارات الخارجية أو يحاولون فى لندن أن يصلوا مع الإنجليز إلى كلمة سواء.

ولم يكد الإنجليز يعلنون زهدهم فى الحماية وميلهم على إلغائها وإقامة نظام خير منها، ولم تكد وزارة الثقة . كما كانت تسمى فى تلك الأيام . تنهض بأعباء الحكم، ولم يكد سعد . رحمه الله . يعود إلى مصر، حتى نجم الخلاف بين الوزارة وبين الوفد حول المفاوضات: من الذى يجريها؟!

أتجريها الوزارة لأنها تمثل السلطان الشرعى النظامى؟

أم يجريها الوفد لأنه يمثل الشعب الثائر؟

وكان الغريب من أمر هذا الخلاف أنه كان يتصل بالمظاهر والصور لا بالوقائع وحقائق الأمر. كان أعضاء الوزارة وأعضاء الوفد يؤمنون جميعا بحق مصر فى الاستقلال، وبأن هذا الاستقلال يجب أن يستخلص من الإنجليز بالمفاوضة الحرة إيثارا للسلم ورغبة فى العاقبة وبخلا بالدماء على أن تراق وبالنفوس على أن تزهق قبل أن تستنفد وسائل السلم. ولكنهم على هذا الاتفاق والإجماع كانوا يختلفون فى مظاهر هذه المفاوضة، لان من يجريها سيتاح له تحقيق الاستقلال إن قدر له النجاح.

وكذلك انقسم المصريون وثارت بينهم فتنة منكرة جعلت بأسهم بينهم شديدا.

ونظرا صاحبنا فإذا العلماء والمفكرون كغيرهم من الناس قد انقسموا إلى فريقين: فريق منهم مال إلى الوفد وقال مع القائلين: "لا رئيس إلا سعد"، وفريق آخر مال إلى الوزارة وقال مع القائلين: "إنما المفاوضات لمن ولى الحكم". ثم نظر صاحبنا فإذا هو كغيره من عامة الناس، وإذا هو الفريق الذى مال إلى الوزارة ورئيسها عدلى باشا، رحمه الله.

وما أسرع ما اضطرمت الفتنة حتى مس لهبها كل نس وكل عقل وكل ضمير وإذا الوفد يتمنى الإخفاق للوزارة فى مفاوضاتها، ويدبر لهذا الإخفاق، وإذا أتباع الوفد يجهرون فى غير تحفظ بدعائهم ذاك البغيض: "الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى"!

وإذا صاحبنا ينفق أقصى ما كان يملك من العنف فى مهاجمة هؤلاء الوفديين الذين اتخذوا من بغضهم لعدلى وأصحابه، ومن حرصهم على رياسة المفاوضات دينا، وإذا هو يكتب ذات يوم فى صحيفة "المقطم" ساخرا من السعديين "يقول الوفديون لا رئيس إلا سعد كما يقول المسلمون لا إله إلا الله".

وقد بلغ الشر أقصاه بين الفريقين حتى انتهى إلى إخفاق المفاوضات، ولم ينزل الإنجليز لعدلى عن الاستقلال وكثرة المصريين لا تؤيده بل لا تحبه بل تبغضه وتبغض أصحابه أشد البغض وأنكره.

ويعود عدلى مخفقا، فيفرح بإخفاقه الوفد وأتباعه، ويزعم أصحاب عدلى . أن صاحبهم قد كان أبيا كريما قد ثبت للإنجليز فلم ينزل لهم عن حق الوطن ولم يقبل منهم الدنية وعاد أشم مرفوع الرأس.

ويرى صاحبنا نفسه ذات يوم فى محطة القاهرة مع المستقبلين لعدلى وهو يصيح مع الصائحين: "ليحى عدلى باشا".

وقد حمل العدليون صاحبهم على الأكتاف حتى وضعوه فى سيارته. ولا يكاد المستقبلون للمخفق العظيم يخرجون من المحطة حتى تنهال عليهم اللعنات ويصب عليهم الاستهزاء صبا، ثم يقذفون بالحجارة والعصى، ويصاب صاحبنا ببعض الأذى، ولولا أن رفيقه ماهر لبقا لتعرض لشر كثير. ولكن رفيقه انعطف به إلى حارة من الحارات ثم نفذ به إلى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم. وأعاده إلى داره موفورا مكدودا مع ذلك.

وينفى سعد بعد إخفاق عدلى بقليل، وينكر عدلى هذا الإخفاق، ويلح فى قبول استقالته، ويرى أصحاب عدلى أن نفى سعد إهانة للوطن كله، وتوشك الكلمة أن تجتمع، ويوشك المصريون أن يصبحوا يدا واحدة على خصمهم من الإنجليز. ولكن العصا لا تلبث أن تنشق، والخلاف لا يلبث أن يعود كأعنف ما كان، لم يغير أحد الفريقين من رأيه ولا من خطته شيئا.

يقول العدليون إن حب الوفد للرياسة قد أضاع المفاوضات!

ويقول السعديون إن ازدراء عدلى للشعب وممثله قد أضاع الاستقلال، ويوشك الاستقلال أن ينسى وتنصرف عنه النفوس بفضل هذه الفتنة المظلمة التى كان المصرى فيها يخرج يده فلا يكاد يراها.

على أن تصريح الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف يرد إلى العدليين شيئا من ثقة وكثيرا من أمل. فقد ظفر ثروت باشا رحمه الله ببعض الحق. وشيء خير من لا شىء!

وقد أتيح لمصر أن تدبر أمورها بنفسها، وأتيح للشعب أن يكون له دستور، وأن يحيا حياة ديمقراطية كريمة.. وأصبح السلطان ملكا، وأصبح لمصر أن ترسل ممثليها السياسيين إلى البلاد الأجنبية بعد أن عادت إليها وزارة الخارجية التى ألغاها الإنجليز حين أعلنوا الحماية.

وكل هذا يتيح لمصر مظاهر الاستقلال وشيئا من حقائقه مهما يكن قليلا فإن له ما بعده. ولكن السعديين كانوا ينكرون هذا التصريح ويرونه شرا ونكرا ويرون قبوله جريمة وإثما.

والخلاف يمضى فى طريقه لا تهدأ ثورته ولا تزداد ناره إلا اضطراما، وصاحبنا ماض مع أصحابه فى إذكاء هذه النار لا يعنيه أن يرضى عنه الراضون أو يسخط عليه الساخطون، وإنما هو مقتنع بأن شيئا خير من لا شيء وبأن القليل صائر إلى الكثير، وبأن هذه المظاهر ستصبح فى يوم من الأيام حقائق إن عرف المصريون كيف يحزمون أمورهم وكيف يجمعون كلمتهم وكيف يحسنون انتهاز الفرص.

وقد أخذ ثروت باشا رحمه الله يهيئ لوضع الدستور فألف لجنة الثلاثين، وأخذت هذه اللجنة فى عملها. ولكن شرا آخر يظهر فى أفق مصر...

فهذه اللجنة قد أخذت عملها على أنه جد... وجعلت تضع دستورا ديمقراطيا يخول الشعوب من الحقوق ما لا يريد القصر أن ينزل عنه. وإذا سلطان الأمس وملك اليوم يمكر بالوزارة واللجنة جميعا. وإذا الخلاف يظهر بين القصر وبين ثروت باشا، وتكون ديمقراطية الدستور هى أصل هذا الخلاف. وصاحبنا ماض فى تأييد الدستور الديمقراطى غير ملق بالا إلى القصر ولا إلى صاحب القصر الذى أحسن لقاءه ومنحه كثيرا من العطف والبر والتشجيع.

وفى ذات يوم ينبئ ثروت باشا صاحبنا بأن القصر ساخط عليه، وبأنه يحاول أن يصلح الأمر.

قال صاحبنا متضاحكا: فأصلح الأمر بين الوزارة وبين القصر إن وجدت إلى ذلك سبيلا. فهذا أجدر بعنايتك من إصلاح الأمر بين القصر وبينى!

ولم يستطع ثروت باشا أن يصلح الأمر بين القصر والوزارة، ولا بين القصر وصاحبنا، وإنما استقال.

ونظر صاحبنا فإذا هو بين عدوين لا يدرى أيهما أنكى له من صاحبه.

يراه السعديون مارقا مالأ المارقين.

ويراه القصر كافرا بالنعمة جاحدا للجميل.

ويرى هو أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون.

وكذلك غرق صاحبنا فى السياسة إلى أذنيه، وكان جديرا أن يفرغ للعلم والتعليم وألا يفكر إلا فى طلابه وكتبه، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إثما لا يغتفر، ولا تمحى آثاره.

وكان صاحبنا يرى الحيدة فى ذلك الوقت جبنا ونفاقا. والمهم أنه غرق فى السياسة أو احترق بنارها، ولم يكن له بد من أن يحتمل نبعات هذا الغرق أو هذا الحريق. وهل كانت حياته كلها منذ تلك الأيام إلا نتيجة طبيعية لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه نارها؟

كل ما لقيه بعد ذلك فى حياته من خير أو شر، ومن عرف أو نكر، ومن رضا أو سخط لم يكن إلا أثرا من تلك آثار تلك السياسة التى أقدم عليها غير حاسب لأعقابها ونتائجها حسابا. وعلى كثرة ما لقى من أهوال السياسة وما احتمل من أثقالها وما تعرض لسخط المتطرفين حينا والمعتدلين حينا آخر، لم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله.

وكثيرا ما كان الناس من صديقه يلومونه على أنه عرض نفسه لسخط هذه الفئة أو تلك. فلم يكن يزيد على أن يهز رأسه ويرفع كتفيه ويجيب هؤلاء الصديق بما كان يديره بينه وبين نفسه دائما: لو استؤنف الأمر من حيث ابتدأ لاستأنف سيرته التى سارها، لم يغير منها شيئا ولم ينكر منها قليلا أو كثيرا. ذلك لأنه لم يستجب فيما قال أو فعل إلا لما كان يدعوه إليه ضميره من الإقدام فى غير تهيب ولا وجل، ولا سيما حين يبلغ الشر أقصاه وتنتهى الفتنة إلى غايتها...

ولقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنة إلى خطوة إلى أمام، وليس بينه وبين العافية إلى خطوة إلى وراء، وأن أصدقائه المحبين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له فى تلك الأيام إلا المشورة والنصح، ليلحون عليه فى أن يؤثر العافية، ولو وقتا قصيرا، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بإلحاحهم، وإنما يخطو خطوته تلك إلى أمام، فيلقى بنفسه بين ذراعين وجبة الأسد كما يقول الشاعر القديم. وما أمض ما وجد ووجد أهله معه من ألم! وما أمر ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء!... ولكنه كان يستحب تلك الشدة الشديدة والقسوة القاسية على العافية واللين.

كان يعرف نفسه حين يشقى فى سبيل ما يرى أنه الحق، وينكرها أشد الإنكار بل يبغضها أشد البغض إذا نعم بالخفض واللين لأنه صانع أو داجى أو جهر بغير ما يسر أو آثر رضا السلطان على رضا الضمير. وكان شعاره دائما الشعار الذى كان يبادى به من يخاصمه كما كان يبادى به من يغريه قول أبى نواس:

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب　　　ولا كل سلطان على أمير!